بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

[٥٨٥ - ٦٥٤هـ]

تقديم وتحقيق
حفني محمد شرف
ماجستير في اللغة العربية وآدابها



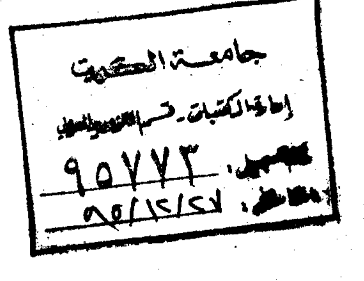


بديع القرآن

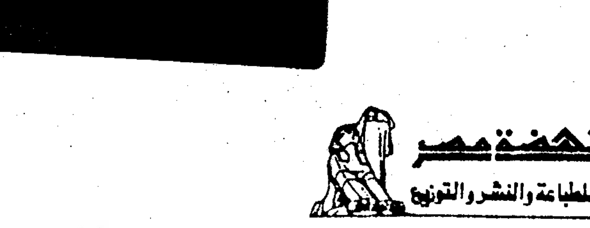
لابن أبي الإصبع المصري

[٥٨٥ - ٦٥٤هـ]

تقديم وتحقيق
حفني محمد شرف
ماجستير في اللغة العربية وآدابها



[redacted]



شوقي

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

— ١ —

وهكذا يستقر فى أذهان الدارسين أن البحوث الأدبية الأصيلة لا يستقيم أمرها إلا إذا سبقها تحقيقُ النصوص الأدبية ونشرُها نشراً علمياً يُزيل عنها اللبسَ، ويبرئها من الشك والغموض، حتى تبدوَ صحيحة كما أنشأها صاحبها، وحتى يقف الدارس منها على أرض من الحديد لا تصيبها الزلازل؛ فيقرأ، ويفسر، وينقُد، ويؤرخ، ويُفيد.

وهكذا، أيضاً، يصبح نقد النصوص أو تحقيقها ونشرُها علماً له أصوله المقررة، وقواعده المرسومة؛ يأخذ بها كل جادّ فى طبع ديوان أدبى، أو كتاب علمى، مهما يكلفه ذلك من مال، وجهد، وزمن. متصوفاً فى ذلك، معتقداً أنه إنما يضع اللبِنة الأولى فى بناء العمل العلمى الصحيح.

وقد مضى — إلى غير رجعة — ذلك العهد الذى كانت المطبعة أو المكتبة. تفخر بإخراج طبعةٍ أىّ طبعة لكتاب أى كتاب غيرَ عابئة بما ارتكبت فى سبيل ذلك من إهمال الأصول الأولى للكتاب، ومن التورط فى الحذف والخطأ، ومن تعريض القراء والدارسين لعجز فى الفهم، وزيغ فى النقد، ومن ظلم المؤلفين والمنشئين، ومن تحريف فى تاريخ العلوم والآداب.

— ٢ —

ولستُ أوغل فى الماضى القديم منذ نشأة هذا الفن الخطير ، وإنما ألاحظ أن كلية الآداب بجامعة القاهرة سبقت حديثاً إلى هذا الجانب من الواجب العلمى فمارسته نظريا وتطبيقياً ، وأخذت الطلاب بالمرانة عليه ، واعتبرته فى مقدمة الأعمال التى تمنح به الدرجات الجامعية العليا ، ولعل أولى درجات الدكتوراه فى كلية الآداب إنما مُنحت بنشر « شاهنامة الفردوسى » باللغة العربية .

كما أذكر أنّ قسم اللغة العربية فى هذه الكلية قد أشار على الأستاذ الألمانى (برجستراسر) بإلقاء محاضرات فى هذا العلم أو الفن على طلابه ، ولا تزال محاضراته أو خلاصتها بين أيدى بعض أساتذة الكلية لم تنشر إلى الآن على الرغم من إلحاحى عليهم بنشرها لفائدة العلم من جهة ، ووفاءً لصاحبها من جهة أخرى .

وسار أمر التحقيق والنشر فى مصر والشرق العربى بأسلوب عملى اجتهادى فى الغالب وعُرف به جماعة زاولوه موفقين إلى حدّ ، وتعهدته بعضُ المؤسسات الحكومية والأهلية ، وظهر فى السوق طائفة من الكتب متفاوتة فى درجة التحقيق ، إن لم تبلغ الكمال فهى مقاربة ، وهى أيضاً قد فتحت النفوس للقراءة ، وبعثت فيها اطمئنان أى اطمئنان .

وفى سنة ١٩٥٤ م أشرتُ على السيد الأستاذ الفاضل عبد السلام هارون ، الأستاذ بكلية دار العلوم وأحد اللامعين النابهين فى هذا الفن ، أن يلقى فيه محاضرات على طلاب (الماجستير) يسجل بها تجاربه ، ويدوّن خبرته فاستجاب كريماً موفّقاً وجلستُ مع الطلاب أستمع إليه وأفيدُ منه إذ كانت محاضراته قسما من (مناهج البحث الأدبى) التى كنت أدرسها لطلاب الدراسات العليا حينذاك .



ثم عاهدته على أن ينشر محاضراته فأوفى بالعهد ، ونشرها بعنوان (تحقيقُ النصوص ونشرُها) وكان بذلك أول جامعي يطالع الناس بثمرات جهوده فى هذا الباب .

— ٣ —

وليس من شأنى هنا أن أتدخل فى تفاصيل هذا الفن أو العلم ، وهى موكولة إلى المختصين الذين أرجو مخلصاً أن ينشروا بلغتنا العربية ما يزيد الناس نوراً ، ويبصّرهم بهذا الواجب المقدس الذى يحترم النصوص ، ويحفظ عليها حُرمتها ، ويقدر نقادها وناشريها ، ويعصمها من ذلك العبث والإهمال ، ويُقيم عليها دراسات طويلة ، عريضة ، عميقة ، وينفى عنها تلك السطحية أو النظرة الخاطفة السخيفة .

لست أتدخل ، ولكنى أشير ، من قرب أو بعد ، إلى ذلك الجهد المضنى الذى يبذله هؤلاء المتصوّفة المتواضعون فى جمع (الأصول) من الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ثم المقارنة بينها ، وترتيبها تاريخيا ، ونقد خطوطها ، ومدادها وأوراقها وما أضيف إليها فى الهوامش والحواشى ، وما أصابها من (خروم أو تدليس وتزوير) وعرضها على النصوص المعاصرة وغيرها ، .. ثم الانتهاء من ذلك وسواه إلى صورة كاملة أو مقاربة وإعدادها للنشر بفهارس منوعة . تدل على جميع محتوياتها وتيسّر على القارئ الإفادة التامة السريعة . كما يتراءى ذلك فى هذا الأثر الذى أقدمه بهذه الكلمات .

— ٤ —

وهكذا . أيضا ، كان السيد/حفنى شرف أول من تصدّى من طلاب (كلية دار العلوم) لهذا العمل العلمى ، فتقدّم لدرجة الماجستير بتحقيق (بديع القرآن) لابن أبى الإصبع المصرى ، وقد أشفقتُ عليه من أول



الأمر وحاولت دفعه عنه ، ولكنه أصر وثبت ، معتمدا بأن له فى ذلك خبرة بحكم عمله بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية .

ولكنى لم أكتف بذلك فاشرت عليه أن يعرض على (أصول الكتاب) مع تقرير عنها ، ففعل واستكمل من الأصول ماوسعه ، وهنا سمحت له بالبدء ، والرجوع فى ذلك الفن إلى الزميل الكريم الأستاذ عبد السلام هارون بعد ملاحظات وضعتها بين يدى هذا الطالب لعلها تنفعه .

وقد صبر حفنى شرف ، وصابر ، وبذل من ماله ، وشبابه ، وجهده ، ماهذل ، متواضعا يصل الليل بالنهار ، وينصرف عن أهله وولده ، ويحتمل صعاب البحث والدرس ، راجيا ، كما قال فى المقدمة ، أن يكون عمله مقاربا للكمال إن لم يبلغ مداه ... أفانت تطلب من الإنسان فوق طاقته أو مالا تمده به وسائله ؟ !

والتقديم ؟ تقديم هذا النص والتعريف به وبمؤلفه . وهنا لا بد أن أتدخل فأرسم له المنهج ، ومع ذلك كان المنهج بسيطا جدا لا يعدو هذه الفصول : من التعريف بكلمة (بديع) وتتبعها فى تاريخ الاستعمال الأدبى حتى عادت اصطلاحا علميا ، وكان التتبع دقيقا شاملا ، ثم هذا الفصل الثانى فى تاريخ البحوث التى تناولت (بديع القرآن) بمعناه العام .

وفصل ثالث فى حياة المؤلف وآثاره ، وهى فصول تلقاك قريبا .

وبذلك يتم الطالب التحقيق والتقديم ويسبق إلى الإسهام فى بحث أديب كبير ، وتمهيد لتاريخ البلاغة فى وطنه العزيز .

— ٥ —

فهل انتهى صاحبنا عند هذا الحد وسكت أو حاول السكوت ؟

يبدو أن نقد النصوص أو تحقيقها صار عند السيد/حفنى شرف ، داء

أصيب به فالتزمه، أو دواء يشفى به ما فى نفسه من الرغبة فى البحث، وإشباع حاجتها إلى الكدح ونبش المخطوطات ونشرها، فلم يكد ينتهى من امتحان الماجستير حتى أخذ يحقق نصا آخر يتقدم به لدرجة الدكتوراه.

اختار كتابا آخر لابن أبى الإصبع، وهو (تحرير التحبير)، كتاب بلاغى ولعله أصل (لبديع القرآن) وأشمل منه، وأحفل بالبحوث النقدية والبلاغية، وأحوج إلى جهد مضاعف. وعناء شديد، وهاهو ذا يجمع أصوله، ويخرّج شواهده، ويستقصى مصادره، ويعرضه على نظائره، ويعده للنشر، فلنتركه فى جهاده ولنطلب له التوفيق.

— ٦ —

أما بعد، فإنى أنا، أيضا، أنتهز هذه الفرصة لأقرّر أن الدراسات البلاغية لا تزال تحيا فى فلك المنهج القديم: علومه ومسائله، وأن هذا العلم (البلاغة) فى حاجة مُلحّة إلى وضع جديد أشار به السابقون، وأجملته أنا فى غير هذا المكان، ورجوتُ أن ينهض به هذا الرعيل الجديد، فإن استطعت تفصيله ... وإلاَّ فكَمْ ترك الأول للآخر والسلام؟

٢٣ من اكتوبر سنة ١٩٥٧ م

أحمد الشايب





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع البحث ـ أهدافه ـ منهجه ـ مصادره

ـــــــــــــ

– ١ –

وقفتُ فى دار الكتب المصرية على كتاب « بديع القرآن » لأبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصرى المعروف بابن أبى الإصبع ، المتوفىّ سنة ٦٥٤ هـ وقرأت بعضَ فصوله فإذا أنا أمام كتاب يجمع فى بحوثه بين البلاغة والنقد الأدبىّ ، ويعتمد فى دراسته على الاستقصاء ، والتحليل ، والموازنة ، والابتكار ، بحيث يمثّل حلقة وضاءة فى تاريخ البيان العربى ، وبخاصة فيما يتصل من ذلك بكتاب الله الكريم .

ثم هو مع ذلك يمثل تاريخ البلاغة فى مصر ، إذ كان مؤلّفه مصرىّ المولد ، والنشأة ، والدراسة ، والحياة كلها . وكان أديبا شاعرا له هذا الطبع الذي ينأى إلى حد كبير عن النظرات الفلسفية التجريدية التى أفسدت الدراسة البلاغية عند المتأخرين ، فاستطاع هو وابن الأثير أن يتشبثا بالجوانب الفنيّة التى تُبرز نواحىَ الجمال والقوة والوضوح فى النصوص الأدبية شعرا ونثرا .

لهذه الأسباب ، ولحقّ العلم الخالص ، اعتزمتُ نشرَ هذا الكتاب ودراسته ، لبيان ما فيه من خصائص أدبية وعلمية ، ولإبراز عنصر من عناصر « المصرية »

فى تاريخ الأدب العربى إذ كانت البلاغة — أو البديع على حد تعبير ابن أبى الإصبع — من أهم مميّزات الفن الأدبى بعامة وفى مصر خاصة .

— ٢ —

إلا أن النُّسخ التى وقفتُ عليها فى دار الكتب المصرية قليلة العدد ، فهى ثلاث تختلف فى بعض المواضع ، وقد لا تكفى وحدها لتحقيق نص الكتاب تحقيقا كاملا أو مقربا ، وهنا توقّفتُ بعضَ الوقت حتى علمت أن اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية استطاعت أن تحصلَ من مكتبات مختلفة على صور أخرى ثلاث لهذا الكتاب ، فأسرعت إلى الحصول عليها ، وبذلك هيئت لى ستّ نُسخ يمكن الاعتماد عليها إلى حد لا بأس به فى تحقيق النص وإعداده للنشر ، ثم الفراغ فيما بعد لدراسته دراسة شاملة .

وفى ذلك الحين ذكرتُ كليةَ دار العلوم ودرجاتها العلميّة العُليا ، وحرصَها على أن يتجه أبناؤها إلى العناية بالنشر أولا وقبل كل شىء ، إذ هو الخطوة الأولى للبحوث العلمية الحقيقية ، فتقدّمت إليها بهذا الكتاب لدرجة « الماجستير » تحت عنوان — تحقيق ودرس — وفرغتُ للنصّ أدرس أصولَه : توثيقا ، وتأريخا ، ومقارنة ، وتحقيقا ، والتزمت فى ذلك القواعد العلميّة للتحقيق كما أقرها المختصون ، وكما أفدتها بالممارسة فى دار الكتب المصرية إذ كنت عضوا فى القسم الأدبىّ بها ، وقد أبنتُ ذلك كله فى التمهيد للقسم الأوّل من هذه الرسالة ، وهو قسم التحقيق ، وبذلك انتهيت إلى نص لهذا الكتاب إن لم يكن كاملا فى باب التحقيق العلمى فإنى أرجو أن يكون مقاربا للكمال إن شاء الله تعالى .

— ٣ —

بقيت الدراسة ، وتمنيتُ أن أنهض بها فى ظل هذه الدرجة الجامعيّة العليا — الماجستير — نعم تمنيت ذلك وأخذت فيه ولكنى وجدت ذلك مجازفة وهجوما على ما لا ينبغى الآن ، وإسرافا فى الجهد والوقت ، وربما كان خروجا



على الطاقة العلمية التى تدّخرها الجامعة عند أبنائها لمتابعة البحوث واطّرادها .

وكيف ذلك ؟

إن دراسة هذا الكتاب لابد أن تقوم على جانب تاريخى يصل بين هذا الطوّر الذى مثّله ابن أبى الإصبع وبين ما سبقه وما لحقه من بحوث وأنواع فى بلاغة القرآن الكريم خاصة ، وفى البلاغة عامة وبيان مقدار ما تأثّر به من سابقيه ، وما أثّر به فى لاحِقيه ، أى أنه يجب على الباحث أن يضع هذا المؤلّف موضعه التاريخىّ فى هذا الفن البيانىّ .

ويجب كذلك ، أن تقوم على جانب آخرَ فنّى يبدى ما أضاف هذا الكتاب من نظرات جماليّة أسلوبيّة إلى بحوث البلاغة القرآنية ، ومقدار ما تتراءى فيه شخصيّة كاتبه ، موازنا ذلك بمن عاصره أو سبقه ، أو أتى بعده لنقدرَ الرجل قدره مستمدّين حكمنا من آثاره وقيمتها .

وإن دراسة هذا الكتاب تثير أمرا يجب أن يهتمّ به المعْنون بدروس البلاغة ، وهو التعقيب عليه ، أو على علم البلاغة فى اللغة العربية ، باقتراح خطة أخرى لهذه الدراسات البلاغية العلمية ، أى أنه لا بد من الجانب الاقتراحى الذى يؤلّف علم البلاغة فى بابين : الأسلوب ، والفنون الأدبية . وأنا أعلم أن هذه الدراسة المقترحة تأخذ مكانها الآن فى كلّيتنا العتيدة ، وأن هناك محاضرات لطلابّ الليسانس ، تُلقَى تحت عنوان « منهج جديد لعلم البلاغة العربية » وأعتقد أن هذه الدراسة التجديدية إنما هى استجابة لما قاله علماؤنا السابقون من أن البلاغة علم لمّا يَنضَج ، وعلينا نحن أن نعيد فيه النظر لعلّنا نحقق للأقدمين ما ينتظرون من المحدَثين .

هذه البحوث التى أشرتُ إليها وما تستتبعه من بحوث أخرى هامة ، يعُوزُها جهدٌ مضاعَف ، ووقت طويل ، ووسائل شتى من دراسات : نفسية ، ولغوية ، وفنية .... وهى لذلك خليقة بأن يفرَد لها مجال عريض مستقلّ أرجو أن أوفّق إليه فى فرصة أخرى إن شاء الله .



— ٤ —

وأعود فأقول : إن تحقيق النص وحده يُعدّ عملا أصيلا فى الدراسة الجامعية العليا ، وإنه كما أسلفت ، يعدّ الخُطوة الأولى لكلّ بحث علمى ، لذلك عُنيتْ به كلّيات الجامعة وعدّته أهمّ شيء فى هذا الطّور من حياتها الناشئة ، ومَنحتْ على أساسه درجةَ الدكتوراه ، لأنه عمل يقتضى صبرا طويلا ، وجهدا شاقا ، يبذله هؤلاء المتواضعون ، أو الجنود المجهولون الذين لا تخدعهم الشهرة ووضع أسمائهم على غُلُف الكتب ، وبين هؤلاء الجنود أردت أن أقوم بنصيبي من التحقيق فى هذه المرحلة الأولى للدراسات العليا فى كلية دار العلوم ، ولعلها — فيما اعتقد — أحقُّ الكليّات وأقدرُها على هذا النوع من الأعمال العلمية ، أعنى عمل التحقيق والنشر ، لأن أبناءها يأخذون أنفسهم مبكّرين بممارسة النصوص : قراءة ، وفهما ، ونقدا ، وإحاطة بكلّ ما يقوّمها من علوم لغوية ، وأدبية ، ودينية .

وأخيرا كان لابدّ لى من أن يكون عنوان رسالتى للماجستير (بديع القرآن لابن أبى الأصبع تحقيق وتقديم) .

١ — أما التحقيق — وهو العمل الأصيل لهذه الرسالة ، أو هو الرسالة نفسُها — فقد أفردت له قسما أوضحتُ فيه منهجى ، فلا أعيد القول فيه ها هنا ، إلا أنى أحب أن أقول : إن هدفى فيه كان تحقيق النص وإعداده للنشر لا غير . وأما الدراسة التاريخية النقدية الاقتراحية فلها مجال آخر أرجو أن أوفّق إليه فيما بعد .

٢ — وأما التقديم فإنّه يلقاك بعد هذه المقدمة ، وهو تمهيد لمن يود قراءة هذا الكتاب أو الإقدام على دراسته ، لذلك أوردت هذا التقسيم فى ثلاثة فصول :

أولا : فى تاريخ كلمة (بديع) والمعانى التى تواردت عليها حتى انتهت إلى هذا الوضع الاصطلاحىّ المعروف الآن .



الثاني : فى تاريخ (بديع القرآن) والإشارة الخاطفة إلى عيون ما ألف فيه .

والقصد من هذين الفصلين أن أضع كتاب ابن أبى الإصبع موضعه بين هذه ، وضعا زمنيا وعلميا .

الثالث : فى التعريف بالمؤلف نفسه : عصره ، وحياته ، وآثاره العلمية ... كل ذلك فى إيجاز يقتضيه المقام ، إذ المقصود هو النص المحقق .

وبذلك أكون قد بينت منهج هذه الرسالة بقسميها : التحقيق ، والتقديم

— ٥ —

وهدف هذه الرسالة واضح مما قدمنا هنا فإن حق العلم وحده يقتضينا تحقيق النصوص العلمية تحقيقا علميا يعرضها سليمة غير مشوّهة ، ولعل هذه النصوص المحققة أهم عنصر فى حضارتنا الأدبية ، ففيها إنصاف لمؤلفيها ، وللتاريخ الأدبى الماضى ، وللتاريخ العلمى المعاصر الذى يُبشّر بيقظة علمية تقدّر ما لها من ماض جليل يستحق الحياة .

ووجه آخر هو أن تحقيق النصوص ، كما قلنا ، هو إعدادها للدرس ، مهما تكن وجهة هذا الدرس ، فقد يستفاد من هذه النصوص كما هى ، وتبقى كما هى أيضا خالدةً نافعة ، وقد تُتّخذ وسيلة للتجديد حين يجب استثمارها أو التعقيب عليها ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهى حلقة من حلقات حياتنا العقلية لا يصح أن تنسى ، وهى بالحرىّ جزء من مستقبلنا أيضا ، فأىّ جديد لا قديم له ؟!

— ٦ —

أما مصادر هذه الرسالة ، فهى النُّسَخ المخطوطة والمصوَّرة ، وقد وصفتها فى صدر القسم الأول ، وبيَّنت طريقة استخدامها ، والمصادر عندى هى التى تضم



مادّة البحث الأصيلة، وبذلك تفترق عن المراجع التى ألجأ إليها لاستكمال التحقيق أو لتدوين ملاحظات للشرح والإيضاح .

والمراجع كثيرة، رصدتها آخر القسم الأول وفى هوامشه ، لتكون عنوانا للباحثين والدارسين .

* * *

وقبل أن ألقىَ القلم أرى لزاما علىّ أن أقدّم جزيل الشكرَ لعَلَمَين جليلين أرشدانى أثناء إعداد هذه الرسالة إرشادا كريما خالصا لوجه الله والعلم ، هما : الأستاذ أحمد الشايب ، والأستاذ عبد السلام هارون ، وقد علمتهما يكرهان الثناء ، ويحتسبان عند الله مايقدّمان للدارسين من عون ، فأحببت رضاهما بأن أسكت عمّا يجب علىّ لهما من حمد وثناء، وشكر ودعاء، واكلا إلى الله الكريم أن يجزيهما عنى وعن العلم خير الجزاء ،

والحمد لله ربّ العالمين أوّلا وآخرا ؟

حفنى محمد شرف



التقــــديم

الفصل الأول

كلمة البديع

معانيها اللغوية والفنية فى تاريخ البلاغة العربية :

— ١ —

نحاول فى هذا التمهيد أن نتتبع كلمة بديع فى أثناء سيرها فى تاريخ اللغة والبلاغة العربية ، ونقف معها عند المعالم الرئيسية لمفاهيمها حتى تنتهى إلى وضعها العلمىّ الأخير :

جاء فى أهمّ المعاجم العربية :

بَدَعَ الشيء يبدَعُه بَدْعا وابتدعه : أنشأه وبَدأه ، وبدَعَ الركيّة : استنبطها وأحدثها ، ورَكِىّ بديع : حديثة الحَفر ، والبَديع والبدْع : الشيء الذى يكون أولا والبِدْعة : الحدَث وكل مُحْدَثة . والبديع المُحدَث العَجيب ، والبَديع : المُبْدِع ، وأبدعتُ الشيءَ : اخترعته لا على مثال ، وسِقاء بَديع : جديد ، وكذلك زِمام بديع ، وأنشد ابن الأعرابى فى السِّقاء لأبى محمد الفقعسى :

يَنْضحْنَ ماءَ البَدَنِ المُسَرَّى

نَضْحَ البَديع الصَّفِقَ المُصْفَرّا

وحبل بديع : جديد ، والبديع : المبتدع بالفتح والكسر ، وأبدع الشاعر: جاء بالبديع . هذه المعانى تنتهى إلى أمرين اثنين :

(١) الجِدّة التى يدل عليها إنشاءُ الشىء ابتداء وعلى غير مثال سابق .

(٢) البراعة والغرابة التى يدّل عليها العجيب .

والوارد فى سائر المعاجم لايخرج عن هذين المعنيين اللغويّين (١) .

— ٢ —

وقد ورد لفظ (البديع) أو مشتقاته فى الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين بمعنى الجديد والمخترَع ، فقال عدىّ بن زيد :

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تَعْتَرِى رجالا غدتْ من بعْد بؤس بأسعُدِ (٢)

وقال الأفوه الأوْدىّ :

ولِكلّ ساعٍ سُنَّةٌ مِمّن مضى تنمى به فى سعيِه أو تُبْدِعُ

وقال حسان بن ثابت (٣) :

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم

أو حاوَلوا النَّفْعَ فى أشياعِهم نفعوا

سجيّةٌ تلك فيهم غيرُ مُحدَثةٍ إنّ الخلائقَ فاعلمْ شرُّها البِدَعُ

وقال الأحوص (٤) :

فَخَرتْ فَانْتَمتْ فقلتُ انظرِيني

ليس جَهْلٌ أتَيْته بِبَدِيعِ

---

(١) لسان العرب ، القاموس ، تاج العروس (مادة بدع) .

(٢) اللسان مادة (بدَع) القرطبى ١٨٥/١٦ طبع دار الكتب المصرية .

(٣) ديوانه ٢٤٨ ط القاهرة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩)م والمراد بكلمة (البدع) هنا مستحدثات الأخلاق .

(٤) اللسان مادة (بدع) . والأغانى ٤ : ٣٤



— ٣ —

وأما فى القرآن الكريم فقد وردت كلمة (بديع) مرتين فى قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[١] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[٢] ﴾ . ومعناها فى هاتين الآيتين : منشئهما ومُبدعهما على غير مثال سابق[٣]

وعندى أن ذلك يتضمن معنى المعجب أى السار ، والطريف الذى يلفت النظر ، لأن خلق السموات والأرض ابتداء يستدعى الإعجاب وقد اتخذ دليلا على قدرة الله وألوهيته .

— ٤ —

وفى الحديث الشريف ورد هذا اللفظ بمعنى الجديد الطيِّب ، يقول الرسول عليه السلام فى وصف تِهامة : « إنَّ تِهامة كبديع العسَل حُلو أوّله، حلو آخره[٤] ».

وقد وردت المادّة أيضاً بمعنى الجِدَّة ، فقد رُوى عن الرسول : « كيف أصنَعُ بما أُبدع علىّ منها[٥] » ، وفى حديث عمر : « نِعمَت البدعة هذه » .

وسنجد هذين المعنيين يتفقان مع المعانى الأدبية أو الفنية التى أطلقت فيما بعد على بعض العبارات والصُّور الواردة فى الشعر والنثر لجِدّتهما وطرافتهما .

---

(١) البقرة آية ١١٧ .
(٢) الأنعام آية ١٠١
(٣) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/٨٥ ط الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ .
(٤) راجع النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/١٧ .
(٥) ابن الأثير ١/٦٧ ، واللسان والمصباح (مادة بدع) .

— ٥ —

فإذا انتقلنا إلى الأدب العربى فى صدر الإسلام شعرا ونثرا وجدنا هذه المادة مستعملة عندهم فى هذه المعانى السابقة .

أما النثر : فكقول على رضى الله عنه : « إنّ[١] أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة » . وقوله « إنما[٢] بدء وقوع الفتنة أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله » . وكقوله : « الحمد[٣] لله المعروف من غير رؤية » إلى أن يقول : « لا فج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد، وذلك مبتدع الخلق ووارثه » .

وقد وردت هذه المادة أيضا فى كلام ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب بنفس هذا المعنى، مما يدل على استعمالها فيما استعملت فيه يقول ابن المقفع[٤] :

وجلّ الأدب بالمنطق، وكلّ المنطق بالتعلم، ليس حرف من حروف معجمه ولا اسم من أسماء أنواعه إلا وهو مروىّ متعلّم، مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب، وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها، ولم يأتهم علمها، إلى أن يقول أيضا : فمن جرى على كلام يستحسن منه فلا يعجبنّ به إعجاب المبتدع، فإنه إنما اجتباه كما وصفنا .

ويقول عبد الحميد الكاتب[٥] : (الحمد لله العلىّ مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، إلى أن يقول : (وقدّرها بحكمه، على ما يشاء من عزمه، مبتدعا لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها) .

---

(١) نهج البلاغة ص ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٦) المصدر نفسه ص ٧٣ .
(٣) رسائل البلغاء ٣ ط القاهرة سنة ١٩٠٨ .
(٤) انظر المصدر نفسه ص ٩١ وص ٧٣ و ٧٠ .



ويقول فى رسالة ينصح بها ولىّ العهد عبد الله بن مروان حينما خرج لمقاتلة الضحّاك بن قيس الشّيبانى الخارجى : « فإن وجّه أحدمنهم نظره إليك محدّثاً أو رماك ببصره ملحّا، فاخفض عنه إطراقا جميلا بإبداع وسكون» . ويقول فى نفس الوصية : «فلا يصلنّ إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا مقروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ، فيعرّضك لابتداع فى دينك ، » .

وأما الشعرُ : فكقول عُمر بن أبى ربيعة المخزومى :

فأتتْها فأخبرتْها بعذرى ثم قالتْ أتيت أمرا بديعا(١)

وقوله :

أقُلت الرّشدَ صرمُ حبالِ هندٍ وما إن ما أتيت به ببديعِ(٢)

وكقول كثيّر عزّة :

وحاجةِ نفسٍ قد قضيتُ وحاجةٍ تركتُ وأمرٍ قد أصبت بديعِ(٣)

وكقول الفرزدق :

أبتْ ناقتى إلاّ زيادا ورغبتى وما الجودُ من أخلاقه ببديعِ(٤)

وكقول جرير :

يا آل مروانَ إن الله فضّلكم فضلا عظيما على من دينُه البدعُ(٥)

وهنا يجب ألا ننسى أننا ندوّن المعنى اللغوىّ لهذه الكلمة (البديع) فى العصور التاريخية والأدبية،وهى إلى الآن عصور كانت تنشىء فى الشعر والنثر العبارات والصّور الأدبية التى سيطلق عليها فيما بعد هذا الاصطلاح (البديع)

(١) ديوانه ط السعادة ص ٣٤٧ .

(٢) ديوانه ٣٥٠ والمراد ليس بعجيب محدث منك بل هو شىء طبعت عليه .

(٣) ديوانه طبع أوربا سنة ١٩٢٨ ١٣٢ ومعجم الأدباء لياقوت .

(٤) من قصيدة يمدح بها زياد بن الربيع بن أنس بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث ابن مالك بن ربيعة؛ وكان فى هجر ؛ ديوانه ص ٤٩٣ ط القاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٥) من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ديوانه ص ٣٥٦ ط القاهرة سنة ٦

فكان الشعراء والكتّاب والخطباء ينشئون الطباق والجناس والتشبيه والاستعارة شاعرين بطرافتها وقوتها وجمالها من غير أن يضعوا لها اصطلاحا علميا، كذلك كان القرآن المثلَ الأعلى فى هذا الاستعمال من قبل أن يُعنى العلماء باستقصاء ووصف (بديع القرآن) كما فعل ابن أبى الإصبع أخيرا .

— ٦ —

وجاء العصر العباسى الأول، وظهر فيه من شعراء البديع بشار بن بُرد المتوفى سنة ١٦٧ هـ ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ وأبو تمّام المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن الرومى المتوفّى سنة ٢٨١ هـ والبحترى المتوفّى سنة ٢٨٤ هـ وعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، وقد تنبهت الأذهان إلى ما فى شعرهم من طرائف الصنعة البديعية ، واندفع فيها بعضهم إلى درجة الإفراط كأبى تمام ، ووقف فيها بعضهم إلى حد القصد كالبحترىّ وابن المعتزّ ، وادّعى بعضهم أنهم مخترعو هذه الفنون ومبتدعوها، فجاء ابن المعتز للرد عليهم فى كتابه (البديع) ..

— ٧ —

وهنا نقف لنأخذ بيد هذه الكلمة (البديع) فى ميدان المفاهيم العلمية أو البيانية، بعد أن نوّهنا ببروزها فى المجال الفنى ، ولئن صَحّ ما زعم الرواة كان مسلم بن الوليد الشاعر هو أول من سمّى هذا النوع بالبديع واللطيف(١) واستعمله فى شعره، وتبعه طائفة من الشعراء أشهرهم أبو تمام .

ومع ذلك فلعلّ الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أول من دوّن واستعمل هذه الكلمة استعمالا نقديا علميا وإن لم يخرج بها فى هذا الاستعمال عن معنى الجدّة والطرافة فقد روى قول الأشهب بن رميلة(٢) :

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج١٩ من نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٠١٩ ز لوحة ٧١ وديوانه طبع ليدن ٢٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ٤ : ٥٥ .



هُمُ ساعدُ الدّهرِ الذى يُتّقَى به   وما خيرُ كفٍّ لا تنوء بساعدِ

ثم فسّره بقوله : قوله : هُمُ ساعد الدهر ، إنما هو مثَل ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع وقد قال الراعى (١) .

همُ كاهلُ الدهرّ الذى يتّقَى به   ومَنكبهُ إنْ كانَ للدّهر مَنكِبُ

وقد جاء فى الحديث « مُوسَى اللهِ أحدّ ، وساعد اللهِ أشدّ » .

والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كلّ لغة ، وأربتْ على كل لسان . والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشّار حسن البديع كذلك ، والعتّابى يذهب شعره فى البديع (٢) :

ومعنى ذلك أمران :

الأول : أن الجاحظ لم يكن أولَ من أطلق هذا اللفظ (البديع) على هذه الفنون البيانية ، وإنما نقل ذلك عن الرواة واستعملها فيما ألّف .

الثانى : أن هذا اللفظ أطلق إطلاقا على الجديد الطريف من هذه الصور والتعابير البلاغية ، فقد أطلق هنا على الاستعارة فى قول الشاعر « ساعد الدهر »

ويقول الجاحظ فى موضع آخر وهو يتحدث عن كلثوم بن عمرو العتّابى : « وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولّدين كنحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوبُ بديعا من بشار وابن هرمة (٣) »

وهؤلاء الذين ذكرهم الجاحظ من الشعراء كانوا يعتمدون على فنون بيانية تدخل فيما سمى أخيرا « علوم البلاغة » من غير تخصيص بأحدها ، وإن غلبت

---

(١) البيان والتبيين ٤/٥٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٥٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/٥٤ — ٥٥ .



هذه الفنون على ما ورد بعد فى علمى البيان والبديع من « استعارة وتشبيه وطباق وجناس ونحوها »

وتكلّم الجاحظ تحت اسم « قطع من البديع » فقال(١) :

وقطعة من البديع كقوله :

إذا حداها صاحبي ورجّما وصاح فى آثارها فأسمعا
يتبعن منهن جُلالا أتلعا(٢) أدَمكَ فى ماء المهاوى مُنقعا

وقال الراجز فى البديع المحمود :

قد كنتَ إذ حبلُ صباك مُدمّش(٣)
وإذ أهاضيبُ(٤) الشباب تَبْنَش(٥)

ومن هذا البديع المستحسَن منه قول حُجْر بن خالد بن مَرثد(٦) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجدْ كفعل أبى قابوس(٧) حزماً ونائلا
يساق الغمام الغُرّ من كُلّ بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كلّ واد حللتَه وإن كان قد خوّى(٨) المرابيع(٩) سائلا

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/٥٧ وما بعدها .

(٢) الجلال بضم الجيم:العظيم ، والأتلع:الطويل العنق (٣)أراد بها «مدمج» فأبدل الجيم شيناً لمكان الروى وهى لغة .

(٤) أهاضيب: جمع أهضوبة، وهى الدفعة من المطر .

(٥) تبنش : تدفع ما بها من الماء .

(٦) شاعر جاهلى كان معاصرا لعمرو بن كلثوم (حيوان٣/٥٨) .

(٧) كنيته النعمان بن المنذر .

(٨) خوى النجم : سقط ولم يمطر فى نوئه، وكان العرب يستدلون على المطر بالنجوم .

(٩) المرابيع : النجوم التى يكون بها المطر فى أول الأنواء .



فإن أنت تَهلِكْ يَهلِك الباعُ والنَّدَى
وتُضحِى قَلوصُ الحمدِ جَرْباءَ حائلا

فلا مَلكٌ ما يبلغَنَّك سعيه ولا سُوقَةٌ ما يمدحنَّك باطلا

ومعنى ذلك أن الكلمة كانت تطلق على نحو الاستعارة والتشبيه من كل جديد غريب .

وقد تنبّه الجاحظ مع ذلك إلى فنون بديعية أخرى، وإن لم يطلق عليها هذا اللفظ ، منها :

الاستعارة[1] ، التشبيه[2] ، الاحتراس[3] ، حسن التقسيم[4] ، السجع[5] الكناية[6] ، الازدواج[7] ، الأسلوب الحكيم[8] ، الإيجاز[9] ، الارصاد[10] والتسهيم ، الاقتباس[11] ، المساواة[12] .

ويظهر أنه فى عهد الجاحظ جرت كلمة (بديع) ومشتقاتها وما يقاربها فى المعنى على ألسنة وأقلام العلماء والأدباء وصفا للمعانى والصور الغريبة الطريفة أو الجيّدة حتى صارت أشبه بالاصطلاح الذى يدل على الجديد المستحسن فى البيان العربى ، فهذا أبو العباس المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ ورد فى كتابه الكامل بيتى الفرزدق :[13]

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ٢/١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ١/٢٢٨ .
(٤) المصدر نفسه ١/٢٣٨ .
(٥) المصدر نفسه ١/٢٨٥ .
(٦) المصدر نفسه ٢/١١٦ .
(٧) المصدر نفسه ٢/١١٦ .
(٨) المصدر نفسه ٢/١٤٧ .
(٩) المصدر نفسه ١/٩٦ .
(١٠) المصدر نفسه ١/٩٦ .
(١١) المصدر نفسه ٢/٦ .
(١٢) المصدر نفسه ١/٩٢ .
(١٣) المصدر نفسه ١/١٠٦ وديوانه ٢ : ١٢٣ ط أوربا والأغانى ١ : ٣٣٦ ط دار الكتب المصرية .

وركبٍ كأنّ الريحَ تطلبُ عندهمْ ... لها تِرَةً مِنْ جَذْبِها بالعصائبِ

سَرَوْا يَخبِطون الرّيحَ وهي تلفُّهم ... إلى شُعَبِ الأكوار ذاتِ الحقائبِ

إذا آنسُوا نارا يقولون ليتَهـا ... وقد خَصِرَتْ أيديهمُ نارُ غالبِ

وأبيات نُصيب :

أقولُ لركبٍ صادرِين لقيتُـهُـمْ ... قفَـا ذات أَوْشال ومولاكَ قاربُ

قِفُـوا خبرّونى عن سليمانَ إنّنى ... لِمعروفِه من أهـل وَدّانَ طالبُ

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنتَ أهلهُ ... ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

ثم يتبع ذلك بقوله : وهذا فى باب المدح حسن ومتجاوز ومبتـدع لم يسبق إليه .

وفى الجزء الثانى من كتابه هذا يعقد بابا للتشبيهات يصدّره بقوله[١] :

« هذا باب طريف يذكر فيه ما للعرب من التشبيه المصيب » ثم يورد أمثلة يصفها بقوله : التشبيه العجيب أو الحسن أو المتجاوز أو القريب أو الطريف ونحو هذه الصفات التى تتصـل بمعنى (البديع) كما ورد فى معاجم اللغة وفى عبارات الجاحظ ، وقد خطـا المبرد فى هذا المجال خطوة فجعل « التشبيه » واسعا بحيث يشمل « الاستعارة » وذلك حيث يقول : ومن تشبيههم المتجاوز الجيّد النّظم ما ذكرناه ، وهو قول أبى الطّمحان القينىّ[٢] :

أضاءتْ لهمْ أحسابُهـمْ ووجوهُهمْ

دُجى اللّيل حتى نظّم الجزعَ ثاقبُـهْ

وهكذا يسير المبرّد فيقول فى كامله[٣] : « كلام طريف » وهذا باب تجتمع فيه طرائف من حَسَنِ الكلام وجيّد الشعر وسائر الأمثال ، وهذا باب طريف

(١) ٢/ ٣٥ .

(٢) ٢/ ٨٨ ، ١٠٠ .

(٣) ٢/ ٩٠ ، ٩١ .



من أشعار المحدثين إلى نحو ذلك مما يدور حول معنى (البديع) فى الاستعمال الأدبى الجديد.

ونكرر هنا ما قلناه آنفا بصدد إيراد الشواهد التى أطلق عليها لفظ (البديع) عند العلماء إيرادا فى نسق تاريخى لعلنا ننتهى بهذا اللفظ إلى وضعه الاصطلاحى الحديث، وأما الفنون البديعية نفسها فإنها تجري على ألسنة الشعراء والكتّاب والخطباء إنشاء وتجويدا، ولعلها تستشرف إلى من يتوّجها بعنوان يضمه لها عن وعى وضعا علميا ثابتا، فلنتقدّم فى سبيلنا ولنصل إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وهو من معاصرى الجاحظ والمبرّد، فلا نجده بعيدا عن صاحبيه فإنه يقول(١): « إنّ الشعرَ يُختار ويُحفظ لأنه غريب فى معناه كقول الشاعر:

ليس الفتى بفتًى لا يُستضاء به ... ولا تكونُ له فى الأرض آثارُ

وكقول الحكم بن عَبْدل أو غيره فى محوىٍّ ساق عنه صَداقا فقال:

شهدتُ عليك بطيبِ المُشاشِ(٢) ... وأنّكَ بحرٌ جوادٌ خِضَمّْ

وأنك سيّد أهلِ الجَحيم ... إذا ما تَرَدَّيتَ فيمن ظَلَمْ

نظيراً لهامانَ فى قَعْرِها ... وفرعونَ والمكتنى بالحَكَمْ(٣)

ويصفه بأنه كثير الوشى، لطيف المعانى، إذ كان كثير الصّور البيانيّة والبديعيّة كقول حسين بن مطير فى السحابة:

كثرتْ لكثرة قَطْرِه أطباؤُه ... فإذا تحلّب فاضتْ الأطْباءُ(٤)

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٢.

(٢) المشاش بضم الميم: رءوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، وفى صفة النبي صلى الله عليه وسلم « انه كان جليل المشاش »، اللسان مادة « مشش » باختلاف فى الرواية. وفسره محقق الحيوان « بكرم النفس ». والخضم السيد الحمول المعطاء.

(٣) المكنى: اسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب بن لؤى، وله كنيتان: أبو جهل، وأبو الحكم وقد غلبت الأولى على الثانية، وكان رأسا من رءوس المشركين انظر الحيوان ٥/١٥٩.

(٤) أطباؤه جمع طبي بضم الطاء وسكون الباء: وهو حلمات الضرع من كل ذى حافر=

وله رَبابٌ هَيدبٌ لرفيفه قبل التَّبعُّق ديمة وَطَفاءُ(١)
وكأنَّ بارقه حريق تلتقى ريحٌ عليه عرفجٌ وألاءُ(٢)
وكأنَّ ريّقهُ ولمّا يحتفلْ وَدْقُ السماء عجاجة كَدْراءُ(٣)
مستضحِكٌ بلوامعٍ مستعبرٌ بمدامع لم تَمْرِها الأقذاءُ(٤)
فله بلا حُزْنٍ ولا بمسرّة ضَحِك يؤلف بينه وبكاءُ
حيران متّبع صباه تقوده وجنوبه كِنْفٌ له ووعاءُ(٥)
غدق يُنَتِّج فى الأباطح فُرَّقاً تلد السيول ومالها أسلاءُ(٦)
غرٌّ محجّلةٌ دوالجُ ضُمّنَتْ حمل اللّقاح وكلّها عذراءُ(٧)
سُحْمٌ فهنّ إذا كظمن فواحمٌ سودٌ وهنّ إذا ضحكن وِضاءُ(٨)
لو كان من لُجج السّواحل ماؤه لم يبقَ فى لُجج السواحل ماءُ

= وخف وظلف وسبع ، وقد استعار الشاعر الكلمة للمطر على التشبيه ، اللسان ١٩/٣٢٧ مع اختلاف الرواية .

(١) رباب : جمع ربابة ، وهى السحابة البيضاء . هيدب : مدلى . الرفيف : التلألؤ والبريق . التبعق : الإمطار بشدة . الديمة : المطر الدائم فى سكون وطفاء : الديمة الحثيثة .

(٢) العرفج : ضرب من النبات سهل سريع الاتقاد . الألاء : شجر حسن المنظر مر الطعم .

(٣) ريق المطر : أفضله . الودق : المطر .

(٤) لم تمرها : لم تسلها ، من قولهم مريت الناقة إذا مسحت ضرعها ليدر لبنها .

(٥) كنف بكسر الكاف وسكون النون : وعاء يكون فيه أداة الراعى ومتاعه ، أو الوعاء الذى يكنف ماجعل فيه أى يحفظه .

(٦) الفرق بضم الفاء وتشديد الراء : جمع فارق وهى السحابة المنفردة لا تخلف ، سميت بذلك تشبيها بالفارق من الإبل ، وهى التى تفارق إلفها فتنتج وحدها ، الأسلاء : جمع سلى ، وهو الجلد الرقيق الذى يخرج الولد من بطن أمه ملفوفا فيه .

(٧) الدوالج : المثقلات بالماء .

(٨) سحم : سود .



ثم يتنبّه إلى فنون دخلت بعد فى علم البديع كالتوشيح[١]، والالتفات[٢]، والكناية[٣]، والتكرار[٤]، وتكلم عن الاستعارة[٥]، والإفراط فى الصفة[٦]، والمجاز[٧].

— ٩ —

وتبقى هذه الفنون البيانيّة والأدبيّة تزداد، وتطغى على الأساليب الشعريّة والنثرية، ولكنّها حائرة تبحث عمن يجمع شملها، أو يضع عنوانها الأول فى مؤلف خاص لعلها تجتمع حوله أو تحته، فتأخذ بذلك وضعها البلاغىّ أو النقدى الدقيق أو المقارب، وتميش ذات اعتبار علمىّ فنى، ... فإذا بأمير عباسىّ يحقّق لها هذا الأمل، ويضع اللّبنة الأولى لهذا البناء البلاغى الذى اتسع ثم نسّق فصار علوم البلاغة العربية المعروفة، ذلك هو عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ صاحب كتاب (البديع)[٨]. وقد اعترف بأن هذه التسمية ليست من ابتكاره وإنما هى من وضع المحدثين، ومن الخير أن نتركه ليبيّن أىّ حلقة هو فى تاريخ هذه الكلمة (البديع) من الناحيتين العلمية والفنية.

قال فى صدر كتابه هذا: « قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن، واللغة وأحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون (البديع) ليُعلم

(١) الشعر والشعراء ١/٣٦ .
(٢) تأويل مشكل القرآن تحقيق الأستاذ سيد أحمد صقر ٢٢٣ .
(٣) » » ١٩٩ .
(٤) » » ١٨٠ .
(٥) » » ١٠٢ .
(٦) » » فى أثناء حديثه عن الاستعارة .
(٧) » » ٧٧ .
(٨) نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٣٥ على نسخة فى مكتبة الاسكوريال بتحقيق المستشرق الروسى الأستاذ كراتشقوفسكى ثم طبع فى مصر سنة ١٩٤٥ بتحقيق الأستاذ عبد المنعم خفاجى .



أنّ بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيَّـلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولـكنه كَـثُر فى أشعارهم فعُـرِف فى زمانهم حتى سمّى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودلّ عليه ...

والبديع[١] عند ابن المعتز خمسة أنواع : الاستعارة[٢] ، والتجنيس[٣] ، والمطابقة[٤] ، ورد أعجاز[٥] الـكلام على ما تقدمها ، والمذهب[٦] الـكلامى ، وبذلك كملت عنده أبواب البديع .

ثم يذكر بعض محاسن الـكلام والشعر فيعدّ منها ثلاثةَ عشر نوعا هى : الالتفات[٧] ، والاعتراض[٨] ، والرجوع[٩] ، وحسن[١٠] الخروج ، وتأكيد المدح[١١] بما يشبه الذم ، وتجاهل[١٢] العارف ، والهزل[١٣] الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين[١٤] ، والتعريض[١٥] والـكناية ، والإفراط[١٦] فى الصفة ، وحسن[١٧] التشبيه ، وإعنات[١٨] المرء نفسه (لزوم ما لا يلزم) ، وحسن[١٩] الابتداء ، ولا مانع عنده أن تدخل هذه الأنواع تحت اسم (البديع)

ومن ذلك نرى ما يأتى :

أولا : أن ابن المعتز أول من ألف فى هذا الفن .

---

(١) البديع ط مصر ١٥ .
(٢) البديع ط مصر ١٩ .
(٣) » » ٥٥ .
(٤) » » ٧٤ .
(٥) » » ٧٤ .
(٦) » » ١٠١ .
(٧) » » ١٠٦ .
(٨) » » ١٠٨ .
(٩) » » ١٠٨ .
(١٠) » » ١٠٩ .
(١١) » » ٢١١ .
(١٢) » » ١١١ .
(١٣) » » ١١٢ .
(١٤) » » ١١٢ .
(١٥) » » ١١٥ .
(١٦) » » ١١٦ .
(١٧) » » ١٢١ .
(١٨) » » ١٣٢ .
(١٩) » » ١٣٧ .



ثانيا : أن ما ذكره يدخل الآن فى علوم البلاغة وبخاصة البيان والبديع ·

ثالثا : أن هذا الاصطلاح (البديع) قد سبق إليه ·

رابعا : أن فنون البديع نفسها من الناحية الفنية قد صاحبت الشعر من أقدم عهوده وإن كثرت على عهد ابن المعتز ، وصيغت عن وعى ، وأن بعض الشعراء إلى عهده قد غلا فى استعمالها ، وأن بشارا ومن تبعه كانوا يعتزون بأنهم أصحاب هذا المذهب الصناعى ، فردّ عليهم ابن المعتز بأن هذا (البديع) قديم لا فضل لهم فى ابتكاره وإن كانت لهم صفة اكثاره وتصنعه . وقد ألف كتابه هذا سنة ٢٧٤ هـ .

وفى ضوء ما صنعه ابن المعتز فى كتابه نستطيع أن نلتفت إلى الوراء لنعرف ماذا كانت تدل عليه كلمة (بديع) عند سابقيه من العلماء والأدباء ، فيبدو لنا أنّ الأنواعَ الخمسة الأولى هى التى كانت مشتهرة باسم البديع ينصرف إليها اللفظ إذا أطلق ، وقد ذكر الجاحظُ منها الاستعارة،وعرفها:بأنها (تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه) كما ذكر المذهب الكلامى (وهو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل المنطق) ثم ذكر الجاحظ من غـــير هذه الفنون الخمسة (جودة الابتداء ، وجودة القطع ، كما سبق مما حدث بعد تغيير فى أسمائها أو معانيها ·

كذلك الأمر بالنسبة لابن قتيبة ، فقد ذكر من فنون البديع الالتفات ، والكناية والتعريض ، والاستعارة ، ومِنْ غيرها : التكرار ، والإيجاز ، والإفراط فى الصفة ، كذلك كان شأن المبرّد فقد ذكر من البديع الاستعارة ، والكناية ، والتشبيه ، والالتفات ، وذكر من المحاسن الغلو ، والتجريد ، واللف والنشر كما قدمنا ، وهكذا نجد هؤلاء الثلاثة الجاحظ وابن قتيبة والمبرّد يشتركون



فى التمهيد لما جمع ابن المعتز فى كتابه ، ويذكرون فنونا بديعية أخرى لم يذكرها فى كتابه (البديع) وإن لم يغلق الباب دونها ، بل تركه مفتوحا لكل ما جدّ وَيَجِدّ من فنون .

وأمر آخر نلاحظه عند هؤلاء ، ذلك أن هذه الأنواع التى أوردوها تتوزّع بين علوم البلاغة فى وضعها الأخير فى العربية، وهى : المعانى ، البيان ، البديع .

— ١٠ —

ونتقدم مع هذه الكلمة (البديع) إلى القرن الرابع وقد صارت مصطلحا علميا يدلّ على هذه الفنون الجديدة الغريبة التى تكسب الكلام حسنا وقوة و بيانا ، نتقدم لنلتقى بقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ممن عاصروا ابن المعتز ، فنجده يتقدّم بمدلول هذا الاصطلاح ، فيوسع معناه ، ويضيف فى كتابه (نقد الشعر) إلى ما ذكر ابن المعتز ثلاثة عشر نوعا وإن لم يسقها مَساق ابن المعتز تحت عنوان (البديع) وهى التقسيم (١) ، والترصيع (٢) ، والمقابلات (٣) ، والتفسير (٤) ، والمساواة (٥) ، والإشارة ، أئتلاف اللفظ مع الوزن (٦) ، والتمثيل (٧) ، والتوشيح (٨) ، والإيغال (٩) ، أئتلاف المعنى مع الوزن (١٠) ، وائتلاف (١١) القافية ، والإرداف (١٢) ، وقد خالفه فى التسمية بعض الباحثين ، على أن قدامة أورد أنواعه المشرين فى مَعرِض القول فى نقد الشعر ، وذكر صفات اللفظ ، وقد كان ذلك تقدّما ملحوظا فى تقسيم هذه الفنون البديعية إلى لفظية ومعنوية :

---

(١) نقد الشعر ط الجوائب ٤٦
(٢) نقد الشعر ط الجوائب ١١
(٣) » » ٤٧
(٤) » » ٤٨
(٥) » » ٥٥
(٦) » » ٦١
(٧) » » ٥٨
(٨) » » ٦٣
(٩) » » ٦٣
(١٠) » » ٦٢
(١١) » » ٥٧
(١٢) » » ٥٧



ويأتى بعد قدامة فى هذا الباب أبو هلال العسكرى المتوفّى سنة ٣٩٥ هـ فقد أضاف إلى ما سبق سبعة أنواع هى[١]:

التشطير[٢]، والمجاورة[٣]، والتطريز[٤]، والمضاعفة[٥]، والاستشهاد[٦]، والتلطف[٧]، والمشتق[٨] ذكرها فى كتابه الصناعتين، ومعنى ذلك أن مدلول كلمة (البديع) آخذ فى الإتساع.

ونصل إلى القرن الخامس فنلتقى بابن رشيق القيروانى المتوفّى سنة ٤٦٣ صاحب كتاب (العمدة) فى صناعة الشّعر ونقده، فنلاحظ عدة أمور:

أولها: أنه أفرد بابا[٩] خاصا للمبادىء والمخارج والنهايات، ولم يعدها من أنواع البديع خلافا لمن سبقه من العلماء — عدا أبى هلال العسكرى — كذلك أفرد للإيجاز بابا خاصا به، ولعلّ ذلك كان بداءة التحوّل فى التفرقة بين الأنواع المتّصلة بأصل المعنى، والأنوع التى تعدّ محسّنا زائدا على أصل الكلام.

ثانيها: أنه حاول الفرق بين المختَرع والبديع[١٠]، فالمخترع من الشّعر: ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحدٌ من الشعراء قبله نظيره، أو ما يقرب منه،

(١) ظن المؤلف أن هذه الأنواع السبعة من اختراعه، وأنه لم يسق إليها، والحقيقة أنه سبق إلى البعض وسلم له البعض، وسأبين فى هامش كل نوع بإشارة بسيطة مدى سبقه لهذا النوع مكتفيا بذلك عن الإطالة التى ليس هذا محلها.

(٢) الصناعتين ص ٤١١ وسبقه إليه ثعلب باسم (المعدل) قواعد الشعر ٢٩، والجاحظ تحت اسم مزدوج الكلام البيان والتبيين ٢/١١٦.

(٣) المجاورة، الصناعتين ٤١٣ سلم له هذا النوع اسما ومسمى.

(٤) الصناعتين ٢٧ سلم له هذا النوع وعرف فيما بعد بالتوشيع الطراز لليمنى ٣/٨٩.

(٥) « ٤٢٣، سلم له هذا النوع ولم يسبق إليه.

(٦) « ٤٢٦ تكلم فى آخره بما يدل على أنه داخل ضمن التشبيه وضمن حسن التعليل.

(٧) « ٤٢٧ سلم له هذا النوع.

(٨) « ٤٢٧.

(٩) العمدة ١/١٤٥.

(١٠) « ٢/١٧٥.



والبديع : هو الجديد ، وأصله فى الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديدا ليس من قوى حبل نُقضت ثم نقلت مثلا آخر .

والفرق بين الإبداع ، والاختراع ، وإن كان معناهما فى العربية واحدا ، أن الاختراع : خلق المعانى التى لم يُسبق إليها ، والإتيان بما لم يكن قط ، والإبداع : إتيان الشاعر بالمعنى المستطرف ، والذى لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى ، والإبداع للفظ ، فاذا تمّ للشاعر أن يأتىَ بمعنى مخترَع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمر وحاز قصبَ السبْق .

ثالثها : أنّه تصرّف فى أنواع البديع ضروبا من التصرّف منها : نفى الشّىء بإيجابه[1] ، والاطراد[2] ، وقد يأخذ نوعا سبق إليه فيفرعه كالإشارة[3] ، وقد يغيّر اسمَ النّوع كالتصدير[4] ، وقد أشار إلى أن ابن المعتز سماه (ردّ العجز على الصّدر) ، وقد يفرد بابا للتفرقة بين نوعين اختلطا حتى صعب الفرق بينهما كما فعل فى بابى (التجنيس[5] ، والمطابقة) ، وقد يذكر بعقب ذلك أنواعا لا شأن لها بالبديع « كالحشو »[6] و « الاستدعاء »[7] وهما من عيوب الشعر ونحو ذلك ، وهكذا أخذتْ مفاهيم كلمة (بديع) تخضع للبحث ، والتفريع والنمو مما يؤذن لها بتحول جديد .

وأما أن نسند إليه أنه أضاف إلى فنون البديع خمسة وستين بابا من الشعر كما يقول ابن السبكى[8] فذلك موضع نظر لأنه لم يضف كل هذا الجديد الكثير .

— ١١ —

أما ابن سِنَان الخَفَاجىّ المتوفّى سنة ٤٦٦ هـ ، فيُعَدّ امتدادا لقدامة بن جعفر ، وضع كتابه (سر الفصاحة) وتناول فيه فصاحةَ اللّفظة الواحدة ،

(١) العمدة ٢/٦٥ .
(٢) العمدة ٢/٦٦ .
(٣) « ١/٢٠٦ .
(٤) « ٢/٢٠ .
(٥) « ٢/١٢ .
(٦) « ٢/٥٥ .
(٧) « ٢/٢٥٨ .
(٨) شروح التلخيص ٤/٤٦٧ .



واشترط لها ثمانية أشياء ، ثم أخذ يذكر صفات الفصاحة فى الألفاظ المؤلفة[1] ، وفى أثناء ذلك عرض للأنواع البديعيّة ، وهذا المنهج نفسه وهو تقسيم الأوصاف إلى ما يتصل بالكلمة والكلام إنما كان امتدادا لمنهج قدامة فى نقد الشعر ، ثم يبرز هذه المسألة وهى : أنّ من أنواع البديع ما مرجعه اللفظ ، ومنها ما مردّه المعنى ، ومنها ما يتّصل بهما معا ، ولعل ذلك أساس ما انتهت إليه هذه الأنواع من أنها محسّنات لفظية ، وأخرى معنوية .

فتكلّم عن الألوان البديعية التى تنشأ من وضع الألفاظ فى مواضعها[2] ، وهى الاستعارة ، والتوشيح أو التسهيم ، وحسن الكناية ، والمناسبة بين الألفاظ ، والسجع ، والازدواج ، والترصيع ، واللف والنشر ، والجناس . وهذه الألوان البديعية اللفظية .

ثم تكلم عن الأنواع التى تأتى من مناسبة الألفاظ للمعانى[3] وهى : الطباق ، والتبديل ، والإيجاز ، والاختصار ، وحذف الفضول ، والتمثيل ، وصحة التشبيه ، وصحّة المقابلة فى المعانى ، وصحة التناسق والنظم الذى عرف أخيرا باسم « حسن التخلص ، وصحة التفسير ، وكمال المعنى ، وهو ما عرف بالتتميم ، والمبالغة والغلو ، والتحرز مما يوجب الطعن ، وهو ما عُرف بالاحتراس والتكميل ، والاستدلال بالتعليل .

والذى لاشك فيه أن ما فعله ابن سنان من التفرقة بين اللفظىّ ، والمعنوىّ كان من أهم الدعائم التى بنى عليها المتأخرون تقسيمهم الألوان البديعة إلى لفظية ، ومعنوية .

---

(١) سر الفصاحة ٦٠ ، ٨٥ .
(٢) « « من ١١٠ — ١٨٣ .
(٣) « « من ١٨٨ — ٢٦١ .



ثم يتكلم عن الترصيع[١] ، والجناس[٢] ، والمطابق[٣] ، والتبديل[٤] ، والإيجاز[٥] ، والمساواة[٦] ، والتذييل[٧] والإشارة[٨] ، والتمثيل[٩] ، وصحة التقسيم[١٠] ، والمبالغة[١١] ، وصحة التشبيه[١٢] ، وصحة المقابلة[١٣] ، وحسن النسق[١٤] ، وصحة التفسير[١٥] ، والاستدلال[١٦] بالتمثيل .

وهكذا نجده يتفق مع السابقين فى تعريف هذه الفنون أو يختلف معهم مما لامجال لبيانه فى هذا التمهيد . إلا أننا ما زلنا نرى مسائل (البديع) مختلطة فيها من البيان ، والمعانى ، والبديع على حسب أوضاعها الأخيرة ، ومعنى هذا أنها لم يتميز بعضها عن بعض بصورة حاسمة إلى الآن .

— ١٢ —

ولا يبعد الإمام عبد القاهر الجرجانى عن الخفاجى ، فقد أدركه إذ توفى عبد القاهر سنة ٤٧١ هـ بعد ما ترك لنا كتابين فى البلاغة العربية هما : (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) ويعنينا هنا أن نتبين فيم استعمل شيخ البلاغة كلمة (بديع) .

أما فى كتابه (أسرار البلاغه) فقد أطلق اسم « البديع » على التشبيه ،

---

(١) سر الفصاحة ١٨١ .
(٢) سر الفصاحة ١٨٢ .
(٣) « « /١٨٨ .
(٤) « « ١٩٢ .
(٥) « « /١٩٤ .
(٦) « « /١٩٥ .
(٧) « « ١٩٨ .
(٨) « « ٢٠٨ .
(٩) « « ٢٢١ .
(١٠) « « ٢٢٤ .
(١١) « « ٢٥٦ .
(١٢) « « ٢٣٥ .
(١٣) « « ٢٥١ .
(١٤) « « ٢٥٣ .
(١٥) « « ٢٥٤ .
(١٦) « « ٢٥٩ .

والاستعارة ، والتمثيل[1] وعلى سائر أقسام البديع فذكر منها التجنيس[2] ، والحشو المفيد وغيره ، والطباق ، والمجاز[3] اللغوى والعقلى ، وحسن[4] التعليل ، ويريد بها الجديد والحسن ، والطريف ، ويحاول دائما أن يقول إن الحسن فيها يأتى من جهة المعنى ، وهكذا لا تزال كلمة البديع تطلق إطلاقا عاما على هذه الأنواع المشتركة بين علوم البلاغة فى صورتها الأخيرة .

وأما (دلائل الإعجاز) فما هو مقطوع به أنه ألف بعد (أسرار البلاغة) ، لأن الإمام عبد القاهر كثيرا مايعد فى أسرار البلاغة باستيفاء موضوعات إذا بحثنا عنها وجدناها فى دلائل الإعجاز .

فمثلا نجده يقول فى أسرار البلاغة : (وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاما فى الفرق بين ما يدخل فى حيز قولهم : «خير الشعر أكذبه» وبين مالا يدخل فيه مما يشاركه فى أنه اتساع وتجوّز فاعرفه .

وقد يبرّ بوعده فى دلائل الإعجاز فى أثناء الحديث عن الشعر ، وغير ذلك كثير .

والسبب الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب يؤخذ من عنوانه ، فقد قصد الكشف عن دقائق إعجاز القرآن ، وتبيين الوجوه التى كان بها معجزا ، ولقد وجد عبدُ القاهر أنه من اللازم عليه أن يعرضَ فيه لكلّ مايوصّله إلى هذه الغاية التى قصدها ، ولأجل وصوله إليها اتجه إلى هدم نظريتين وجدتا قبله ، واكتسبتا أنصارا فى عصره ، وهما نظريتا اللفظ والمعنى ، ثم يخلُص إلى أن روعةَ الكلام وإبداعَه ليس فى اللفظ وحده ، ولا فى المعنى وحده ، وإنّما موطنهما النّظم ،

---

(١) أسرار البلاغة ١٤ — ١٥ ، ٣٥١ — ٣٥٧ .
(٢) « « ٤ — ١٤ .
(٣) « « ٣٠٣ .
(٤) « « ٢٥٨ .



ثم يحشد الأدلة ، ويعقد الفصول الكثيرة لدعم هذه النظرية وتثبيت أركانها ، وجعلها مبعث الجمال ، وموطن الإعجاز ، ولم يقف عند هذا، بل عرض لمباحث عرفت من قبله فى البديع، كالإيجاز ،والكناية والتعريض،والتمثيل ، والاستعارة، وتعرض لأكثرها فى أسرار البلاغة ومباحث محلها علم المعانى الآن ، كالفصل والوصل ، والقصر ، والتقديم والتأخير ، والحذف ، ولذلك اعتبر عبد القاهر الواضع الأول لأساس علم المعانى بعد أبى هلال العسكرى ، ولكنه لم يسم ماذكره من البديع هنا بديعا ، كما لم يسم ماعرف فى علم المعانى بالمعانى ،بل أطلق على الجميع (بيانا) حيث يقول : (١) ثم إنك لاترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب ورداً، وأكرم إنتاجا ، وأنور سراجا من (علم البيان) الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر وينفث السحر .

ومما لاشك فيه أن هذا هو عين ماعرف عن البديع ، وما تفيده هذه الكلمة من المعنى (الطريف والجديد والحسن) .

وإنا إذ نراه هنا يسميه (بيانا) نراه فى موطن (٢) آخر يسميه (علم الفصاحة والبيان) والفصاحة ، والبيان ، والبلاغة ، والبراعة التى هى معنى الإبداع والبديع وما شا كلها عند عبد القاهر ألفاظ متواردة على معنى واحد ، كما صرح بذلك . (٣)

ومن هنا نرى أن الأنواع التى سماها فى أسرار البلاغة « بديعا » سماها فى دلائل الإعجاز (بيانا) فتكون اللفظتان عنده متقاربتى المعنى ، فيكون معنى البديع لايزال يحتفظ بمعناه الذى عرف به فى أسرار البلاغة :

---

(١) دلائل الإعجاز ٤ — ٥ .

(٢) « « ٣٤٩ .

(٣) « « ٣٥ .



وهكذا كان أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ يستعمل كلمة (بديع) بمعنى الجديد الطريف الذى يكسب المعنى وضوحا وقوة ، واللفظَ حلاوة وجمالا ، فأطلقها على خمسة وتسعين نوعا جمعها فى كتابه (البديع ونقد الشعر)[(١)] اعتمدَ فيها على من سبقه من العلماء كابن المعتز ، وأبى هلال العسكرى ، وابن رشيق ، وغيرهم . فأطلقها على التجنيس[(٢)] ، والتطريز[(٣)] ، وتجاهل العارف[(٤)] ، والاستعارة[(٥)] ، والتطبيق[(٦)] ، والاحتراس[(٧)] والاعتراض[(٨)] ، وهكذا إلى آخر كتابه .

— ١٣ —

ولعل السكاكىّ المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أول من حاول فى وضوح أنْ يفصل بين هذه البحوث البديعية ، وأن يتقدّم بها خطوةً لتتوزّعَ بين علوم البلاغة العربية (المعانى ، والبيان ، والبديع) فقد ألّف كتابه (مفتاح العلوم) وقسمه أقساما ثلاثة :

القسم الأول : تكلم فيه عن علم الصرف .

والقسم الثانى : تكلم فيه عن النحو .

وأما القسم الثالث : فتكلم فيه عن المعانى ، والبيان ، ولعله أخذ هذه التسمية (المعانى) من تعريف عبد القاهر الجرجانى للنظم الذى تناولَ مباحثَ علم المعانى[(٩)] فقال السكاكىّ : « ليس النظم إلا معانى النحو ، ولعله أيضـــا أولُ من أطلق

---

(١) نسخة مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥ بلاغة .
(٢) بديع ابن منقذ ٦
(٣) بديع ابن منقذ ٣٣
(٤) » » ٤٧
(٥) » » ٢٠
(٦) » » ٥٠
(٧) » » ٢٨
(٨) » » ٦٥
(٩) دلائل الإعجاز ٤٠ والمفتاح ٧٠



(علم البيان) على التشبيه ، والمجاز ، والكناية [١] ، ثم بيّن منزلة علم البيان من علم المعانى فقال : « إنها بمنزلة المركّب من المفرد » ، وأوجبَ لذلك تأخير البيان عن المعانى [٢] . وهكذا نجد العقلية الفلسفية ، أو العملية أخذت تسيطر على هذه البحوث البديعيّة ، وتحدّدها وتفصلها لتتمايزَ وتصبحَ أقساما ، أو علوما مختلفة ، وبعد ذلك يتقدّم السكاكىّ إلى سائر الأنواع البديعية فيسميها محسنات يُصار إليها لقصد تحسين الكلام [٣] وهى قسمان :

القسم الأول أنواع : كالمطابقة [٤] ، ومراعاة النظير ، واللف والنشر ، والتقسيم ، والإبهام .

وتحت القسم الثانى : التجنيس ، والترصيع ، والقلب ، وردالعجز على الصدر ، وهكذا ينتهى الأمر عند السكاكىّ إلى :

(١) تقسيم هذه الأنواع البديعية إلى أقسام رئيسية ثلاثة .

(٢) وضع اسم (علم المعانى) لمباحث الجملة وما إليها . واسم (علم البيان) لمباحث الصورة .

(٣) وترك سائر الأنواع تحت اسم المحسنات التى قسمها قسمين : معنوية ولفظية ، وبقيت خُطوة صغيرة ، فجاء الخطيب القزوينى المتوفّى سنة ٧٨٠ هـ وخطا هذه الخطوة الأخيرة ، فوقف عند ماسماه السكاكى بالمحسنات ، واحتفظ له بذلك الاصطلاح القديم ، وسماه (علم البديع) وبذلك أخذت علوم البلاغة وضعها الأخير ، فتحددت موضوعاتها ، وانفصلت أقسامها ، ووضعت أسماؤها : المعانى ، والبيان ، والبديع ، وعلى ذلك سارت الدراسة إلى الآن ... كان ذلك فى (تلخيص المفتاح) للخطيب القزوينى .

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٦ وما بعدها
(٢) « « ١٧٩
(٣) « « ١٧٩ — ١٨١ — ١٣٢
(٤) « « ٢٢٥ — ٢٢٩



— ١٤ —

وفى نحو الوقت الذى كان السكاكى يبذل جهده لتصنيف هذه البحوث البديعية ، وتمهيد السبيل لنفسه ، ولتابعه الخطيب القزوينى لوضع علوم البلاغة وضعها الأخير أقول : فى نحو هذا الوقت كان هناك عالمان آخران لايزالان ينهجان منهجا أدبيا عاما ، أحدهما : ابن أبى الإصبع صاحب (تحرير التجبير ، وبديع القرآن) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وثانيهما : ضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) المتوفى سنة ٦٣٧ ، أما ابن أبى الإصبع فقد التزم فى فهم كلمة (البديع) مذهب من سبقه من العلماء بأن أطلقها على جميع الأنواع الطريفة التى دخلت فيما بعد فى علوم البلاغة (المعانى والبيان والبديع) ، وسيكون موضوع دراستنا بالتفصيل فيما بعد ، فلنتركه هنا إلى حينه .

وأمّا ابنُ الأثير ، فإنه فى كتابه (المثل السائر) قد نهج فى هذه البحوث منهجا ينحرف بعض الشىء عن منهج الباحثين من سابقيه ومعاصريه :

(١) أول ذلك أنه سمى هذه البحوثَ (علم البيان) ، ولعلّه لم ينفرد بهذه التسمية ، فإنّ كثيرا من الناس يسمّون العلوم الثلاثة (علم البيان) ، كما أنّ منهم من يطلق هذه التسمية على البيان ، والبديع ، وقد كان الأمر من قبل أن تُسَمّى كلّها بديعا .

(٢) وثانى شىء أنه قصر كتابه على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة فى أصول علم البيان ، والمقالتان فى فروعه الأولى : فى الصناعة اللفظيّة ، والثانية : فى الصناعة المعنوية . ولعله هنا أيضا ، متأثر شكليا لا موضوعيا بما عرف عند السكاكى من تقسيم المحسنات إلى لفظية ومعنوية .

(٣) وثالث شىء أنه أورد هذه الأنواع البديعية فى المقالتين على أنها أنواع صناعية لفظية ، ومعنوية كما سبق ، ولكنه لم ينس كلمة (البديع) ، فأوردها



إيرادا عرضيا أو جزئيا إذ يقول عن المطابقة : « وهذا النوع يسمى البديع أيضا » .

وناقش العلماء هذا النوع من حيث تسميته .

(٤) والرابع أنه نزع فى دراسته نزعةً نقديّة وتطبيقية ، فقد حاول أن يرسم طرق تعلّم الكتابة ، كما عقد موازنات بين الأدباء ، وتعقّب كثيراً منهم فيما أنشأ ، وكان له نفوذ فى ذلك ، وإن كان ممتزاً بنفسه كثيراً .

— ١٥ —

هذه هى كلمة «البديع» فى تاريخ الدراسة البلاغية أوجزناممانيها فى أطوارها المتتابعة لنعرف أين نضع (بديع القرآن) لابن أبى الإصبع منها ، ولا يهولَنّ أحداً هذا التطواف بين طبقات المؤلفين ، وعيون المؤلفات ، إذ أنّ ذلك من شأنه أن يلقِىَ ضوءا على مباحث ابن أبى الإصبع من وجه ، ويبيّن صلاتها بغيرها من وجه آخر ، ويعين الباحثين فى تاريخ البلاغة العربية آخر الأمر .

على أن هذه الصورة الأخيرة للبلاغة العربية ليست الوضعَ الذى يحسن السكوت عليه ، فقد أشار أسلافنا إلى أن البلاغة من العلوم التى لم تنضج .

وهذا مايفسر لنا هذا المنهج الجديد لدرس البلاغة العربية ، وهو منهج تبشر به الدراسات الجامعية الآن [1] ، وهو منهج ينتهى إلى أن البلاغة بابان : الأسلوب والفنون الأدبية ، وفى باب الأسلوب تدخل مباحث المعانى ، والبيان ، والبديع فى بعض فصوله وأقسامه ، فى حين أن باب الفنون الأدبية جديد فى جملته ، ولعل من نتائج ذلك العدول عن هذه الأسماء (المعانى ، والبيان ، والبديع) ووضع البلاغة عندنا وضعا كاملا يشبه وضعها فى الآداب العالمية فلننتظر .

---

(١) راجع كتاب الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب الطبعة الرابعة .



الفصل الثاني

في بديع القـــــــرآن

— ١ —

أجملنا في الفصل الأول من هذا التقديم تاريخَ كلمة (بديع) منذ نشأتها في الاستعمال اللّغوي، إلى أن استقرت في الاصطلاح البلاغي، دالةً على أحد علوم البلاغة كما عرفها العرب ، ذلك هو علم البديع الذي يبحث في محسّنات الكلام لفظيةً ومعنويةً .

ونُريد في هذا الفصل — من التقديم — أن نُجمل القولَ في تاريخ بديع القرآن ليكون مقدمةً لدَرس (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع .

وإذا كان ابنُ أبي الإصبع قد أطلق لفظ (بديع القرآن) إطلاقا شاملا يتناول ما في القرآن الكريم من شواهد المعاني ، والبيان ، والبديع مختلطةً ، فقد صار من الحق علينا — ونحن نتناول ما كُتب في بديع القرآن — أن نُجمل القولَ في هذه المؤلفات التي تناولت بديع القرآن بهذا المعنى الشامل أيضا ، أي هذه الكتب التي كتبت في بلاغة القرآن حتى انتهت إلى المؤلف الذي نتحدث عنه .

وملحوظة أخرى نُشير إليها من الآن، هي أنّ مباحث البلاغة والنقد الأدبي كانت تَرد مختلطةً في كتب السابقين ، وكانت ترمى كلّها إلى بيان ما في القرآن الكريم من صور البيان ، ووجوه الإعجاز ، فلا عجَب إذاً أن نورد هنا كتبا فيها الغلبة للبحوث النقدّية ، وأخرى فيها الغلبة للبحوث البلاغية ، إذ أنها جميعا ترمى إلى دراسة هذا الجانب الفنّي الممتاز في القرآن الكريم .



ولسنا هنا نريد الاستقصاء ، فذلك غير ميسور فى مثل هذا التقديم الموجز ، ولكنا سنقف عند المعالم التى تنير السبيل أمام الدارس إن شاء الله تعالى ، تاركين الاستقصاء إلى التاريخ المفصل الذى ينبغى أن يفرد له مؤلف خاص .

— ٢ —

أولا : بحوث متفرقة :

وأول خطوة من هذه البحوث البديعية تبدو متناثرة فى كتب المفسرين والمتكلمين والأدباء الذين حرصوا على أن يبينوا إعجاز القرآن الكريم الذى جعله الله دليلا على رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — وبرهانا على صدق دعوته ، جامعا لفنون البلاغة ، حاويا لأطراف الفصاحة ، محكما فى نظمه ، إذ تحدى الفصحاء ، فوقفوا أمام هذا النظم موقف الإعجاب والذهول والحيرة(١) ، وكذبوا النبى ، وعارضوا القرآن ، ثم لم يلبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجا(٢) ، ثم جاهد العرب لنشر الإسلام ، فدخلت فيه شعوب شتى — وهم أصحاب ثقافات متعددة — فلم تلبث هذه الثقافات أن ظهرت فى عقائدهم وتفكيرهم فى فهم معانى القرآن ، ففتحوا للخلاف أبوابا ، وظهرت طوائف المتكلمين ، والأدباء ، والمفسرين ، وكان لكل طائفة طريقة خاصة بحسب مذهبها السياسى ، أو الدينى ، وسنفرد كل جماعة بكلمة :

(١) المعتزلة :

كانت هذه الطائفة من أبرز طوائف المتكلمين التى ثبتت فى الدفاع عن الإسلام ، وظهر يظورهم أول كلام منظم عن القرآن ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وكان منهم من يظن أن الناس يقدرون على الإتيان بمثله ، وبما هو أحسن

(١) انظر أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٧ .

(٢) الفرقان لابن الخطيب/٢٩ .



منه فى النظم [١] لولا الصّرفة ، ورأس من قال بذلك واصل بن عطاء البصرىّ المتوفّى سنة ١٣١ هـ [٢] ، ثم تبعه تلميذه ابراهيم بن سيّار النظّام البصرىّ المتوفى فى سنة نيّف وعشرين ومائتين [٣] ، مصطنعين ما زعموه التفكيرَ الحر والمناهجَ العقلية [٤] .

وخرج على هذا الرأى جماعةٌ من تلاميذ النظام على رأسهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى كان أديبا كبيرا من أدباء المعتزلة ، كما كان من أئمّة البيان ، فقد ألّف كتابا عن نظم القرآن وأسلوبه ، [٥] للردّ على القائلين بأن القرآن فى مقدور العباد الإتيانُ بمثله ، ولكن الله صرَفهم عن ذلك ، وبيان أنّ القرآن معجز للعرب بنظمه وأسلوبه ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ، ولذلك يحتج للقرآن بقوله فى وصف بيانه [٦] . « وفى كتابنا المنزّل مايدلنا على أنه صدق ، نظمُه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد » . كما أنه فطن أيضا إلى أنّ لألفاظ القرآن ميزةً أزيد مما سبق من حيث النظم ، وهى إتيان بعض ألفاظه مقترنةً متصاحبةً لا تكاد تفترق ، مثل الصلاة ، والزكاة ، والجوع ، والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس [٧] ولم يقِف أمرُ الجاحظ عند تأليف كتاب يبحث فى نظم القرآن وبيان رأيه فى بلاغته . بل إنه تكلم عن أنواع بديعية استخرج أمثلتها من القرآن ، وعرفتْ هذه الأنواع فيما بعد باسم البديع ، وإن كان الجاحظ لم يضع لها قوانين ، أو يفصلها التفصيل الذى وجدتْ عليه فيما بعد . فتكلّم عن المجاز وجعله شاملا للاستعارة ، والتشبيه عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ [٨] ﴾ وقوله تعالى :

---

(١) الملل والنحل ١/٣٩ ، الفرق بين الفرق ١٤ ، رسائل الجاحظ/٤٧ .
(٢) لسان الميزان ط الهند سنة ١٣٢٩ (٣) المصدر نفسه .
(٤) روح المعانى للآلوسى ١/٢٤ .
(٥) الحيوان ١/١ ولم يبق من هذا الكتاب إلا اسمه .
(٦) الحيوان ٤/٩٠ . (٧) البيان والتبيين ١/٢١ .
(٨) سورة المائدة آية ٤٢ .



﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً[1] ﴾ ، وقوله تعالى : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ[2] ﴾ وتكلم عن الإيجاز عند كلامه على كتابه (نظم القرآن) فيقول[3] :ولى كتاب جمعتُ فيه آيا من القرآن لتعرِفَ بها فضلَ ما بين الإيجاز ، والحذف ، وبين الزوائد والفضول ، والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيتَ فضلها فى الإيجاز ، والجمع بين المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، فمنها قوله حين وصف خَمْرَ أهل الجنة ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ[4] ﴾ وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عزّ وجلّ حين ذكر فاكهةَ أهل الجنّة فقال : لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ[5] ﴾ جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى.

ولاشكّ أن ما قاله الجاحظ من الكلام على (بديع القرآن) كلام غير مقصود لذاته إذ لم يُرِدْ أن يتكلّم عن فنّ البديع أو البلاغة ، بل كان يتعرّض لذلك استطرادا ، وتلك طريقتُه فى كتابته ومؤلفاته ، ولكنّ ما عمله أسدَى إلى البيان العربى عامة ، وبديع القرآن وبلاغته خاصة — اليدَ الطولى بجهوده التى بذلها فى دراسة أسلوب القرآن ، والتى أثمرت ثمرةً طيبة فى حياة النقد والبلاغة ، لأنه آمن إيمانا لا يساوره شك بأن القرآن فى الذّروة العليا من البلاغة وأسلوبهُ مثل أعلى للأسلوب العربى ، ولذا كان يقدّم الشاهد القرآنى على غيره .

وأخيرا نعلم أنّ طريقة المعتزلة فى دراسة بلاغة القرآن ابتدأتْ بالصّرفة وانتهتْ على يد الجاحظ بأنّه بليغ فى لفظه ، رائع فى أسلوبه ، مشتمل على أنواع بديعية .

* * *

(٢) المفسّرون :

كان لهم فى تنمية البلاغة ، والكشفِ عن أسرارها ، وخاصة بلاغة القرآن

---

(١) سورة النساء آية ١٠ .
(٢) سورة القلم : ٤٢ .
(٣) الحيوان ٤/٢٧٨ .
(٤) سورة الواقعة : آية ٢٩ .
(٥) سورة الواقعة ، آية ٣٣ .

نصيب ، وإن كان تفسيرهم لغويا فى المرحلة الأولى ، وتأويلا لما فى القرآن من أمر ونهى ، وإشارة وحدود ، إذ كانت الألسنة قد فسدت ، ولم تستطع كلُّ العقول إدراكَ أسرار القرآن ، وإبرازَ نكتِه التى تضمنت شيئا من أسرار جماله ، ووجوه بيانه ، فاضطلع بهذا العبء فى تلك المرحلة اللغويون والنحاة الذين سنتكلم عنهم فيما يأتى ، وما بين أيدينا من تفاسير القرنين الثانى والثالث الهجرى المشحونة بآرائهم خير دليل على صدق ما نقول(١) ، ويندر أنْ يمر باحث على كتاب أُلّف فى القرن الثانى إلا ويجد اسمه يَنِمّ عن ذلك ، فيجد مجاز القرآن ، ومعانى القرآن ، ومتشابه القرآن ، ومشكل القرآن ، ونحو ذلك من الأسماء .

وسوف أعرض لرأى بعض المفسرين الذين تعرضوا لدراسة بلاغة القرآن عرضا موجزا ، لا على سبيل الحصر والإحاطة ، وإنما على سبيل المثال .

١ — فمن هؤلاء المفسرين الفرّاء المتوفّى سنة ٢٠٧ هـ ، والحقيقة أنّ الفراءَ وإن كان مفسرا ، إلا أنه يُعتبر بحق امتدادا لأبى عبيدة فى مجازه ، إذ أنّ تفسيرَه (معانى القرآن) مكمّل له من الناحية اللغويّة ، لأنه وإن كان يبحث فى التراكيب والإعراب ، فإنّ المجازَ يبحث فى الغريب والمجاز ، وكلتا الدراستين تبحث فى الأسلوب والتراكيب ، ويغلب عليه فى دراسته الطابعُ النحوىّ ، وهذا أمرٌ طبيعىّ ، إذ أنه إمام النحو الكوفىّ كما أنه لم ينس الأسلوب ، ولكنه بجانب كلّ ذلك لم ينس الدراسة البيانيّة ، فقد تكلّم عن أنواع بديعية فى القرآن أثبتها فيه ، ودلّل على وجودها بذكر أمثلتها فيه فتكلم عن الكناية(٢) ، والتشبيه(٣) ،

---

(١) انظر مقدمة شرح المفصل للزمخشرى ١/٨ .

(٢) انظر كلامه على الكلمات « سمعهم وأبصارهم وجلودهم » سورة فصلت آية ٢٠

(٣) انظر كلامه على قوله تعالى : « ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل » سورة الفتح آية ٢٩ .



والمجاز[١] ، والاستعارة[٢] ، وإن لم ينص عليها صراحة ، الا أن تفسيره يظهر معناها ، والالتفات[٣] .

كما أن الفراء لم يغفل موسيقى ألفاظ القرآن ، ولا نظمه ، ولا وزنه ، وأثر كل ذلك فى نفوس سامعيه ، وأنه يثير بألفاظه وأسلوبه وجدانهم ، ويروع نفوسهم ، وهذا ما امتاز به عن أبى عبيدة[٤] .

* * *

ب — ثم يتقدم الزمن ، ويتطور التفسير ، وينتقل من التفسير اللغوى إلى الإيضاح ، والتأويل على يد ابن جرير الطبرى المفسر المتوفى سنة ٣١٠ هـ الذى انتقل بدراسة بلاغة القرآن إلى أوسع مما كانت عليه عند الفراء حيث يقول فى تفسيره[٥] : « ومن أشرف تلك المعانى التى فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ، ووصفه الغريب ، وتأليفه البديع الذى عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء ، وكلت عن وصف شكله البلغاء ، وتحيرت فى تأليفه الشعراء » وإننا لنفهم من هذا النص أن الطبرى يؤكد نظرية بلاغة القرآن ، ويرجعها إلى بديع نظمه وتأليفه الغريب الذى أعجز العرب ، مع أنه بلغتهم ولفظه كلفظهم ، ثم ذكر بعض الأنواع البديعية التى أدت إلى التفاوت بين القرآن الكريم وكلام العرب ، وما أتى منها فى اللسان العربى ، كالتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والإيجاز ، والإطناب .

والطبرى يعتبر واضع أساس الدراسة البلاغية للمفسرين عامة ، وللزمخشرى

---

(١) انظر كلامه على قوله تعالى : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » سورة براءة آية ٣ .

(٢) انظر كلامه على قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق » سورة القلم آية ٤٢ .

(٣) انظر كلامه على قوله تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) سورة القيامة آيتا ٢٠ ، ٢١ .

(٤) انظر كلامه على قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) سورة الرحمن آية ٤٦

(٥) جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ١/٦٥ .



المتوفى سنة ٥٣٨ هـ خاصة ، وإن كان الزمخشري قد تأثر بعبد القاهر الجرجاني ، ولم يضع كتابا خاصا في بلاغة القرآن ، إلا أنه عالج بلاغته من طريق عملي آخر ، وهو طريق التفسير للقرآن على طريقة علماء البلاغة ، إذ يبحث البيان في القرآن ، ويطبقه عمليا فيه حيث يقول في مقدمة كتابه[1] « إنه لابد من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة لطائف حجته » فنرى في هذا النص أن علم البلاغة قد أخذ شكلا جديدا ، وأصبح يطلق على البيان والمعاني على خلاف ما كان يعرفه علماء التفسير السابقون ، وهو بهذا يوافق الجرجاني حيث يجعل بلاغة القرآن راجعة إلى المعاني والأسلوب ، وكان يرى أن الله قد خص العرب بالنصيب الأوفر من سحر البيان ، فتصرفوا في ألوان القول المختلفة ، وكأنه تعالى قد مخض هذا البيان وألقى زبدته على لسان محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وأيده بكتاب بيانه ساطع ، وبرهانه قاطع ، وطريق بيان إعجازه وبديعه هو علم التفسير الذي لا يمكن الإنسان أن يصل إليه إلا بمعرفة علمي البيان والمعاني ، وبجانب ذلك يرى أنه لابد له من وجود ذوق في الفكر ، وسلامة في الإدراك ، ودراية بأساليب النظم والنثر ، وإحاطة واسعة بمعرفة الأنواع البلاغية وما تشتمل عليه من تقديم ، وتأخير ، وذكر وحذف ، واستعارة وكناية ، ومجاز ، ومعرفة ذلك كله لها أثر كبير في ذلك ، وهو يسير في تفسيره للقرآن متبعا أحكام فن البلاغة ، فكان تفسيره منفردا بهذه الصفة ، وأخذت بلاغة القرآن على يديه شكلا جديدا هو بيان اشتمال القرآن على الأنواع البديعية التي عرفت بعلمي البيان والمعاني .

ولقد سار الإمام ابن عطية في تفسيره المسمى « الجامع المحرر » على طريقة الزمخشري في كشافه ، ولكنه لم يذكر أنواعا بديعية كما أنه لم يتكلم عنها ، بل يثبت البلاغة للقرآن ، ويرى أن العرب عجزت عن الإحاطة بجميع الألفاظ وأماكنها ، فلذلك لم تستطع معارضته ، ويرى أن بلاغة القرآن قائمة على نظمه البديع ،

---

(١) الكشاف جـ ١/٣ .



ومعانيه الرائعة ، وألفاظه المتلائمة ، ويرجع عدم إدراكنا لبلاغة القرآن إلى قصورنا عما فيه من البلاغة ، لأن الناس يعمّهم الجهل والنسيان والذهول ، فلا يستطيعون الإحاطة بما جاء فى القرآن من البلاغة[1] .

* * *

(٣) الأدباء :

لمّا سقطت الخلافة الأمويّة ، وقامت على أنقاضها الخلافة العباسية ، وزاد اختلاط العرب بالعجم ، وهبّ الناس يطلعون على كتب غيرهم من الفُرس والأعاجم ، نتج عن ذلك إعمال العقول . وإطلاق التفكير إطلاقاً حرّاً لا يتقيد إلاّ بقيد الاجتهاد العقلى ، فظهر فى القرن الثانى وما بعده شعراء وأدباء يتدارسون القرآن ويكتبون عنه ، وأعنى بالأدباء الرجال الذين كانت لهم بجانب دراساتهم الأدبية دراسات قرآنية ودينية ، والفرق بين الدراسات الأدبية والدراسات القرآنية أن الأولى يغلب عليها الأسلوب الأدبى ، والخيال الرائع ، واتجه الأدباء بدراستهم للقرآن إلى الناحية الفنّية والجمال الفنّى حتى يستطيعوا الكشفَ عن بلاغة القرآن وبديعه ، فأخذوا يَقرِنونه بشعرهم ونثرهم من ناحية اللفظ ، والمعنى ، والأسلوب ، والنظم .

فظهرت فى القرن الثانى الهجرى طائفة من الأدباء والشعراء ، أخذوا يتدارسون القرآن ، وينقدونه ، ويقلّدون نظمَه وأسلوبَه ، ولكنّهم باءوا بالفشل ، ومُنُوا بالهزيمة ، وأيقنوا أن القرآن بلغ الذِّروة فى البلاغة والفصاحة .

(ا) ولقد ظهرت فكرة بلاغة القرآن وروعةُ بديعه مع هدفه الإصلاحى

(١) انظر الإتقان للسيوطى ٢/١١٩ ، ومجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٥٤ ص ١٠٤ نقلا عن تفسير المؤلف . ٤٠٨



عند الكاتب الكبير والأديب الفاضل على بن ربّن الطبرى حيث يقول (١) :

« حينما كنت مسيحياً كنت أقول كما يقول عمٌّ لى متعلم بليغ بأن أسلوب القرآن ليس معجزاً ، وليس من علامات النبوة ، لأنه فى استطاعة الناس كلهم ، ولكن عندما حاولت تقليده ، واطّلعت على مدلول كلماته ، علمت أن أتباع القرآن على حق فيما يدّعونه له ، لأنى لم أطّلع على كتاب يأمر بالخير وينهى عن الشر كالقرآن ، فعندما يحمل لنا شخص كتاباً يحمل نفس المميّزات ، ويوحى إلينا بهذه الطلاوة ، وتلك الروعة فى القلوب ، ويحوز مثل هذا النجاح ، ويكون فى نفس الوقت أمّيّاً لم يتعلّم أبداً فنّى الكتابة والبلاغة، فهذا الكتاب يكون بلا شك من علامات النبوة .

فابن ربّن يثبت فى هذا النص البلاغة للقرآن ، والطلاوة لأسلوبه وألفاظه ، والروعة لمعانيه ، ويجعل ذلك كله مع أميّة النبيّ دليلا صادقاً على رسالته وعجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ، ولكنه مع إطلاقه القول فى بلاغة القرآن لم يحدد البلاغة ولا أنواع البديع فيها .

ثم يتسع الحديث عن بلاغة القرآن وبديعه عند الأدباء ، ويأخذ شكلا آخر أوضح وأظهر على يد :

(ب) أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ : فى كتابه الصناعتين وإن لم يخصّص لدراسة بلاغة القرآن تأليفاً خاصا ، إلا أنه أوجب معرفة البلاغة ودراستها لأنها هى الطريق الموصّل إلى معرفة بلاغة القرآن وإعجازه ، فيقول (٢) : « إعلم علمك الله الخير أن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى »

فبن هذا النص يوجب أبو هلال تعلم البلاغة والفصاحة حتى يصل المتعلم إلى معرفة بلاغة القرآن وبديعه، ثم يؤكد ذلك بوضوح بقوله فيقول : « وقد علمنا

---

(١) أدب الدين والدولة : ٤٤

(٢) انظر مقدمة الصناعتين له : ١ وما بعدها



أن الإنسان إذا أغفل علمَ البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمُه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما حباه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وما ضمّنه من الحلاوة ، واشتمل عليه من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها ، وتحيرتْ عقولهم فيها » .

فهو بهذا النصّ يرى أن بلاغة القرآن وفصاحته راجعتان إلى نظمه ، وحسن تأليفه ، مع سُهولة كلامه ، وعُذوبة معانيه ، ثم زاد فى بلاغة القرآن أثره فى النفوس ، وإحداثه تلك الطلاوة فى القلوب ، مع اشتماله على الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وأراد أنّ يدلّل على ذلك فذكر أنواعا بديعية [1] عُرفتْ فى عصره ، وأُطلقتْ عليها كلمة « بديع » وبيّن مدى وجودها فى القرآن الكريم حتى يقوّى مذهبه ويدعّم حجّته ، إذ انتقل ببلاغة القرآن إلى الناحية الفنية ، ليبحث فيه عن جمال الألفاظ ، ورونق المعانى ، وصحّة التراكيب .

(ح) ثم ينتكس القول فى بلاغة القرآن ، ويعود سيرته الأولى التى بدأها النظّام على يد الأديب ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ إذ يقصد من دراسة القرآن غرضاً دينيا لا فنياً ، فهو يحث الأديبَ على معرفة الفصاحة حتى يستطيع من وراء ذلك قول الكلام ونقده ، وفهم النصوص الشرعية ، ومعرفته لماذا كان القرآن خارقا للعادة بفصاحته وإن كان لا يقول بأن القرآن بليغ ، إذ يقسم الكلام إلى قسمين : متلائم ومتنافر [2] ، وينكر على الرّمانى جعله القرآنَ متلائما فى الطبقة العليا ، وغيرَه من كلام العرب فى الطبقة الوسطى ، فهو يرى أنه لا فرق بين القرآن ، وبين فصيح الكلام المختار فى ناحية الفصاحة ، وأنّ فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه ، ثم يعود فيشدّد النكير على (الرّمانى) لتعرّضه لبلاغة القرآن ، وجعلها حجة فى إعجازه ، لأن القرآن يتألف من ألفاظ نطقتْ بها العرب وجاءت فى كلامهم ، ويرجع تنافر الألفاظ إلى قرب مخارج حروفها ،

---

(١) انظر الصناعتين الباب التاسع فى شرح البديع من ٢٦٦ — ٤٣٠

(٢) سر الفصاحة : ٩١ ، ٩٤ ، ٢١٢ على الترتيب



ولما كانت ألفاظ القرآن غير متنافرة ، وأسلوبه غاية فى البلاغة ، كان من القائلين ببلاغة القرآن من غير شعور منه . ولكنه جعل القرآن طبقات فى الفصاحة ، إذ أن بعضه أفصح من بعض ، ويسوق لذلك أمثلة لتأييد رأيه ، ويقول : « ليت شعرى أىّ فرق بين أن يخلق الله وجهين أحدهما أحسنُ وأصبحُ من الآخر ، وبين أن يحدث كلامين أحدهما أبلغُ وأفصح من الآخر » .

(د) ثم تعود دراسة بلاغة القرآن وبديعه إلى الوضوح والظهور مرة أخرى على يد السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ إذ يرى أن القرآن بليغ بنظمه ، وأسلوبه ، وفصاحة ألفاظه ومعانيه ، وصحّة مبانيه ، يقوده إلى ذلك الكشف عن بديع القرآن وجماله ، ووجود الفنون البلاغيّة فيه .

فقسّم علوم البلاغة إلى نحو ما نعرفه الآن من علومها الثلاثة ، وأعطاها شكل القواعد، وبوّبها بحيث عُدّ إماما لمن أتى بعده ، وفى وسط هذه الدراسة تعرّض لبلاغة القرآن بما نقله عنه صاحب « الإتقان »(١) حيث يقول : « اعلم أن إعجاز القرآن يُدرك ، ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكما يُدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطرة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان ، والحذق بهما .

ولا شك أن هذا النص تغلب عليه الروح الفلسفية والعقليّة المنطقية التى يُعتبر السكاكى أوّل من صبغ بها علوم البلاغة ، كما يفهم منه أن بلاغة القرآن شئ لا يدركه أحد إلا بفهم بلاغة الألفاظ والمعانى وطرق تأديتها ، وذلك بإعادة النظر فى المعانى والبيان وإتقانهما ، ثم نراه أيضا يتحدث فى كتابه(٢) عن قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٣) ﴾ .

---

(١) الإتقان ط المطبعة الأزهرية ٢/١٢٠

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٢٣ — ٢٢٤ (٣) سورة هود آية ٤٤



ويبيّن فى هذه الآية الأنواعَ البديعية ويقول : هذا كله نظر فى الآية من جانب البلاغة ، وأما النظرُ فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهو كما ترى ، نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخّصة ، لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيَها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة تسبق إلى أذنك إلا ومعناها يكون أسبق إلى قلبك ، وأما النظرُ فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ...... ولله درّ التنزيل ، لايتأمّل متأمّلٌ آيةً من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت ، وما تركت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمى المعانى والبيان .

وهذه الآية نفسها ذكرها ابن أبى الإصبع وأخرج منها ما لايقل عن عشرين نوعا من أنواع البديع .

(هـ) — ثم نرى الآمدىّ سيفَ الدين أبا الحسن علىّ بن على الثعلبى ،وهو من علماء القرن السابع الهجرى يتكلّم عن بلاغة القرآن ، ولكنّه لم يخصّص لها كتابا خاصا، بل إنه جمع آراء السابقين ، وتكلّم عن نظم القرآن وأسلوبه (١).

* * *

ثانيا : كتب خاصة بالدراسات القرآنية

— ١ —

بعد أن أشرت إلى آراء العلماء المتفرقة فى أثناء الكتب عن بلاغة القرآن وبديعه فإنى أتكلم عن علماءَ أفردوا كتبا لدراسة القرآن ، ولم أستطع أن أقول: دراسة بلاغه القرآن أو بديعه ، لأنى لم أعثر على كتاب انفرد به مؤلفه لدراسة

(١) انظر مقدمة تفسير الآلوسى ١/٢٥ ط مصر



الأنواع البديعية فى القرآن قبل ابن أبى الإصبع ، وإنما اتجه فريق من الناس إلى الدراسات القرآنية : مفردات ، وغريب ، ومجاز ، ومعان ، ونظم ، وإعجاز ، غرضُهم الأساسى من هذه الدراسة بيانُ أثر القرآن فى الذوق العربى ، وكشفُ خصائص الأسلوب القرآنى من الناحية اللغوية ، والنظم ، وطرق التعبير ، حتى يهتدوا من وراء ذلك إلى سرّ بلاغته وإعجازه . وأثرِه فى النفوس ، وسوف أتكلّم عن كلّ كتاب ألّفه صاحبُه لدراسة القرآن ، مبيّنا مدى ما أفادت هذه الدراسةُ وذلك التأليفُ فى دراسة بلاغة القرآن ، حتى أضع ابن أبى الإصبع فى موضعه من هؤلاء المؤلِّفين .

ولعلّ أول كتاب انفرد بدراسة القرآن هو كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ ، وهو يتضمّن محاولةً لتفسير غريب القرآن وبيان منهجه أو مجازه فى التعبير ، ووجوه نظمه التى لا يوجد مِثلُها فى كلام العرب ، وأبو عبيدة لم يُفصِح لنا عن موقفه من بلاغة القرآن ، ولكنه تكلّم عن أنواع (١) بلاغية فيه ولم يقصد التفصيل والتقسيم لهذه الأنواع التى تعرّض لها وسمّى بعضها ، وتراه يكرر كثيرا قوله : مجازه كذا ؛ ومن هذا نرى أن أبا عبيدة لم يقصد الكشفَ عن بلاغة القرآن أو بديعه ، أو عن جمال أسلوبه ، كما قد يُفهم من معنى هذه العبارة بل كان كلّ همّه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية ، وقرنها بما جاء مثيلا لها فى الأدب العربى ، مما

---

(١) تكلم عن تكرار التوكيد فى آية « فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » البقرة ١٩٦ وقوله « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » يوسف ٤ ، والتقديم فى آية : « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » الحج : ٥ ، والكناية فى آية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » الشعراء : ٤ ، والالتفات والحذف استغناء بدلالة التجوز (انظر مقدمة مجاز القرآن لأبى عبيدة) .



جعل كتابه يعتبر بحق النواةَ الأولى للبحوث البيانية ، وإن كان قد أفاد غيرَ قليل فى البحوث اللغوية

— ٣ —

تأويل مشكل القرآن ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦

صنّفه للردّ على الطاعنين فى بلاغة القرآن من المعتزلة والملحدين والذين اتّبعوا ما تَشابَهَ منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله ، فبيّن ما غمض من معناه، وفسّر المشكل الذى ادُّعى على القرآن فسادُ النظم فيه ، وابن قتيبة يقصد « ببلاغة القرآن أو بديعه » صحةَ التأليف الذى قطع أطماع الكائدين ، وعجيبَ النظم الذى دحضَ حِيَل المتكلّفين ، وأثره فى النفس ، وفوائده التى لا تنقطع حيث يقول :

الحمدلله الذى نهج لنا سبلَ الرشاد، وهدانا بنور القرآن،« وَلَمْ يَجعلْ لَهُ عِوَجا » بل نزّله قيّما مفصّلا بيّنا « لَا يأتيه الباطلُ مِنْ بَينْ يدَيهِ وَلَا مِن خَلفه تنزيل من حكيم حميد » . . . . وقطع بمعجز التأليف أطماعَ الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلّمين ، وجعله متلوًّا لا يُمَلّ على طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجُّه الآذان ، وغضّا لا يَخلُق على كثرة الترداد ، وعجيبا لا تنقضى عجائبهُ ، ومفيدا لا تنقطع فوائده ، ونَسخ به سالف الكتب ، وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه ، وذلك معنى قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أوتيت جوامعَ الكلم [1] » .

ثم بين أنه لا يمكن الوصول إلى معرفة بلاغة القرآن إلا بترداد النظر فيه ، واتساع العلم ، وفهم مذاهب العرب ، فقال [2] : « وإنما يَعرف فضلَ القرآن من أكثر نظره فيه ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها فى الأساليب

(١) اللسان ٩/٤٠٤

(٢) تأويل مشكل القرآن تحقيق السيدأحمد صقر ص ١٠



وما خصّت به لغتها دون جميع اللغات » ، ثم أخذ يقرن بين لغة القرآن وبلاغته ، وبين لغة العرب وبلاغتهم ، وبعد أن بين أن بلاغة القرآن راجعة إلى التأليف والنظم وسلاسة المعانى وعذوبة الألفاظ ، وأثره فى النفس ، إذ يثير الوجدان عن طريق الشعور فيهزّ القلوب ، لأن أسلوبه يخاطب النفس البشرية خطابَ العارف بخفاياها ، كما لم يُغفِل الناحية اللغوية ، فتناول لغة القرآن كأداة للتعبير .

وذكر ابن قتيبة أنواعا بديعيّة فى القرآن تكلّم فيها عن المجاز(١) والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار والتكرار والزيادة ، والكناية والتعريض ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه .

كما لم يستطع إنسان أن يُغفِل صنعَ ابن قتيبة فى استخراج ما فى القرآن من أنواع المجاز ، وتبويبها أبوابا مفصّلة قبل أن يؤلف ابن المعتز بديعه فى سنة أربع وسبعين ومائتين بسنين .

— ٣ —

ننتقل ببلاغة القرآن إلى القرن الرابع ، فنجد أن نظرة العلماء إليها لم تتغير ويعتبرُ ما أتوابه تردادا لما سبق ، اللهم إلّا فى القليل النادر الذى سيظهر لنا فى المستقبل ، فنجد أن أبا عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ قد ألّف كتابا فى إعجاز القرآن البيانى ، وقد كانت هذه الفكرة مُسيطرة على الكتب ، مُوجّهةً لمباحثها ، آخذةً مكانها فى البحوث النقديه باعتبارها غاية حينا ، وثمرة حينا آخر(٢) ، فظهرت كتب مستقلّة معنوَنة باسم الإعجاز ، تعرضت فى هذه الدراسة أو اعتمدت فى دراستها على الكشف عن بلاغة القرآن ، فسار الواسطىّ على نظرية من يقول : إنّ بلاغة القرآن أصل فى إعجازه ، ولكننى لم أطّلع على كتابه ، ولم أدر من أين حكم الأستاذ الرافعى(٣) عليه بأنه أول من جدّد القول فى بلاغة القرآن وصنّف فيه ، مع العلم بأن كتابه مفقود .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٧٦ — ٢١٢ .
(٢) أثر القرآن فى تطور النقد ١٤
(٣) تاريخ آداب العرب ٢/ ١٤٥



— ٤ —

يرى الرّماني « أبو الحسن على بن عيسى » المتوفى سنة ٣٧٤ فى كتابه « النُّكت فى إعجاز القرآن » أن من جهات إعجاز القرآن بلاغته ، وقسّم البلاغة إلى طبقات ثلاث .

(١) ماهو فى أعلى طبقة (٢) ما هو فى أدنى طبقة (٣) ما هو فى الوسط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلى طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان فيما دون ذلك ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ، وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلّمان : أحدهما بليغ ، والآخر عييّ ، ولا هى أيضا تحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ المعنى وهو غثّ مستكره ، ونافر متكلّف ، وأما البلاغة فهى إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر للعجم ، فهذا معجز للعجم خاصة ، كما أن ذلك ، وهو القرآن ، معجز للكافة [1] » .

ومن هذا نفهم أن القرآن معجز بألفاظه ، وأسلوبه ، ونظمه ، وأثره فى النفوس [2] .

ثم يرى أن اللغة على أقسام ، عدّت هذه الأقسام أنواعا بديعية ، وعرفت تحت اسم البديع ، وهذه الأقسام التى ذكرها وجعلها بلاغة للقرآن وهى [3] : الايجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن : ٢٢

(٢) نقل عنه هذا الرأى ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة ص ٩١ وما بعدها ، وصاحب الطراز ٣/٤٠٤

(٣) النكت فى إعجاز القرآن ، ضمن مجموعة الثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد أحمد خلف الله ، محمد زغلول سلام من ص ٧٠ — ٩٨ .



والذى يهمنا أن الرمانى يرى أن نظم القرآن خارج عن العادة ، وطريقته مفردة لها منزلة فى الحسن تفوق كلّ طريقة ، حتى الموزون الّذى يُعتبر أحسن الكلام .

— ٥ —

ما زلنا فى القرن الرابع مع الخطّابى حَمْد بن ابراهيم بن خطّاب البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ معاصر الرّمانى ، فقد ألّف كتاباً سماه « بيان إعجاز القرآن » وفى الحقيقة أن هذا الكتاب استعراض وجمع لآراء العلماء فى بلاغة القرآن وإعجازه ، ثم إثبات رأيه فى ذلك ، والخطّابىّ يرى أن بلاغة القرآن راجعة إلى جمال ألفاظه ، وحسن نظمه ، وسموّ معانيه ، يظهر ذلك حينما تقرأ قوله (١) : « وإذا تأملتَ القرآن وجدت هذه الأمور فى غاية الشّرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفا ، ولا أشدّ تلازما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدّم فى أبوابها ، والترقّى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ، وقد توجد هذه الفضائل متفرقة فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى كلام واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكلّ شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا » .

ولم يقف أمر الخطابى فى تفسير بلاغة القرآن على فصاحة ألفاظه ، ولا سلامة نظمه ، وحسن تأليفه ، ولا وضوح معانيه ، بل تعدّت ذلك إلى أثر القرآن فى النفوس فيقول : « إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حسّ السامع والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيعُ فى القلوب ، والتأثيرُ فى النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يُشبهه كلام ، وتُحصر الأقوال عن معارضته ،

(١) بيان إعجاز القرآن : ٢٨ (٢) المصدر نفسه : ٢٦



وتنقطع به الأطماع عنها أمر لابد له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف .

وقد قسّم الكلام إلى طبقات ثلاث : فيقول تدليلا على النص السابق « وشاهد على أن السبب له والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرسْل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم ، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتّة ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده . والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم حصة،وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة .

ويجب أن يعلم بأن فهم الخطّابى للبلاغة قريب مما نفهمه نحن الآن منها ، بل قريب جدا من الكمال،وإن كان ينقص رأيه عنصر الخيال ، إذ جمع فى كلامه بين معان سامية ، وأسلوب محكم ، وعاطفة قوية تؤثّر فى القلوب .

— ٦ —

اتسعت دائرة الكلام عن بلاغة القرآن وبديعه فى الشكل ، ولكن لم يتغير الموضوع وكان أتساعها على يد عالم كانت له فيها جولات واسعة وهو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ ، وفى الحقيقة أنه يعتبر قنطرة عبر عليها حديث بلاغة القرآن من أفكار تدور على ألسنة العلماء والأدباء ينقلها واحد عن آخر ، وآراء متشعبة فردية ، إلى أفكار ثابتة منظمة فى أسلوب علمى سليم ، وطريقة واضحة ، حتى أصبح بحق مدرسة تخرّج فيها علماء البلاغة ومؤلفو كتب بلاغة القرآن وبديعه من بعد .

وهو وإن كان قد ألف كتابه ليردّ به على منكرى الإعجاز فى عصره وقبله



عصره ، إلا أنه تكلم عن بلاغة القرآن وأثره فى نفوس سامعيه[1] ، كما تعرض لكتاب « نظم القرآن » للجاحظ[2] ، ورأى أنه غير كاف للدلالة على بلاغة النظم ، لأن الجاحظ لم يزد عما قاله المتكلمون قبله ، ويملل لبلاغة القرآن أنه بلغ النهاية فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة[3] ، ومع إيمانه ببلاغة القرآن وتفاوته العظيم فى النظم بينه وبين غيره من الكتب السماوية يرى أن البديع ليس من الأسباب التى توصل إلى الإعجاز حيث يقول[4] : « إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادّعوه فى الشعر ووصفوه فيه ، لوجود البديع فى شعر الشعراء ، ونثر الكتّاب ، ولا شك أن الباقلانىّ برأيه هذا يخالف ابن أبى الإصبع فى بديعه حيث يؤمن أن البديع يقصد به أنواع البلاغة من طرق الإعجاز فى القرآن .

ثم نراه يدعو إلى ترداد النظر فى القرآن ومقارنته بغيره حتى يتوصّل إلى معرفة أيّهما أبلغ ، ولقد وجّه جلّ عنايته إلى هذه الموازنات .

ولقد شغف ببلاغة القرآن فأخذ على نفسه أن يَرجِعها إلى أسلوبه ونظمه ، فيرى أنّ أسلوب القرآن خاص به ، لا يضارعه فيه غيرُه ، كما أنه خارج عن الأساليب المعروفة[5] ، فلم يوجد ولن يوجد فى العربية أثر يجاريه فى بلاغته بحيث يحفظ جمالَ الأسلوب مع هذا المقدار من الطول ، والاشتمال على الموضوعات المختلفة من الأوامر والنواهى ، والوعد والوعيد ، والقصص ، كما أنه يدلّل على جودة نظم القرآن وسموّ بلاغته بأخذ كلمة منه ، واستعمالها فى شعر أو نثر ، فتصير كالدُّرّة فى وسط العِقد تسترعى الأنظار ، وتدهش العقول ، وتَبهَر الألباب[6] .

ولم يقتصر عمل الباقلانّى على مجرد الكلام عن ألفاظ القرآن وأسلوبه ونظمه

(١) إعجاز القرآن ٤٠ وما بعدها
(٢) « « : ٦
(٣) « « : ٥٤ وما بعدها .
(٤) « « : ١٦
(٥) « « : ٦٠ وما بعدها .
(٦) « « : ٦٧



وأثره فى النفس ، وما تؤدّى هذه الأشياء مجتمعةً إلى بلاغته ، بل تكلّم عن أنواع بديعية كثيرة تحت هذا الاسم (١) عرفها وبين أساليب الأداء المختلفة عند العرب ، كما أنه عرف البلاغة عما فى البيان والتبيين ، وذكر التشبيه ، والاستعارة ، والتمثيل ، والمماثلة ، والتجنيس ، والمطابقة ، والمساواة ، والإشارة ، والمبالغة ، والغلو ، والإيغال ، والتسهيم ، والتقسيم ، والتكميل ، والاستطراد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو وإن كان لم يُطِل الكلام عن هذه الأنواع ، فكذلك لم يَعمل على حصرها كراهة التطويل .

وأخيرا نعلم أن الباقلانى يقصد ببلاغة القرآن وبديعه أسلوبه ونظمه البديع وألفاظه وأثره فى النفوس ، ثم لم يغفل اشتمال القرآن على أنواع بديعية .

— ٨ —

ثم نرى معاصرا آخر وهو الشريف الرضىّ المتوفى سنة ٤٠٦ يؤلّف كتابا عن مجازات القرآن ، يعتبر هذا الكتاب ، معجم لغة ، وديوان أدب ، ومجمع نوادر ، وكتاب بلاغة ، وقد بيّن فيه كثيرا من غرائب آيات القرآن ، وأوضح طائفة من غوامض أسراره ، ويسّر فهمَ عجائب معانيه ، وكشفَ عن بدائع متشابهاته ، وأبان عن لطائف تأويله ، وألف بين مختلفه ، وعبّر عن سر إعجازه ، وأصول براعته وجواهر كلامه ، نخدم العربية والقرآن وفنون اللغة .

ونراه يعمل على بيان بلاغة بعض الآيات التى يتعرض لها ، فيصدر كلامه عن الآية بكلمة استعارة ، ويجرى الاستعارة على الطريقة الحديثة ، ولكنه لا يقصد بها الاستعارة التى تتفرّع عن التشبيه ، كما أنه تكلم عن المجاز ، ولا يقصد به المجاز اللغوى المصطلَح عليه فى علم البيان ، وإنما يطلق كلمة المجاز على معنى أعم يشمل المجاز العقلى واللغوى والتشبيه جملة .

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٦٠



— ٨ —

ثم نرى بلاغة القرآن قد اتخذت منهجا جديدا عند عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ الذى تكلم عنها ، فلم يكن مقلدا ولا جامدا لآرائهم ، بل كان مفكرا استفاد مما ذكروه ، ومبتكرا فاخترع ما لم يعرفوه . فكان صاحبَ نظرية النظم ، وألبسها ثوبا قشيبا ، كما أنه وجد أن دولة الألفاظ قد طغت وكثر زعماؤها ، فنقل البلاغة من حيّز الألفاظ المتلائمة إلى المعانى المتناسبة ، وعرضها عرضا مستفيضا حتى اعتبر بحقّ عند كثير من علماء البلاغة أنه أول من ألف فيها ، وقد ألف كتاب «دلائل الإعجاز» ليثبت فيه بلاغة القرآن بعد كلامه عن البلاغة عامّة فى كتابه « أسرار البلاغة » . وإن كان لكتابه الأخير هذا ميزة خاصة ، وهى عنايته بالبلاغة من الوجهة النفسية من حيث مراعاة وقع الكلام فى النفس ، ومراعاة أحسن الطرق لإفهام النفس الإنسانية ما يريد أن يؤدّيه المتكلّم ، والجرجانىّ فى دراسته لبلاغة القرآن لا يَرجع هذه البلاغة إلى معانى الكلمات مفردة ، ولا إلى موازنة كلمات القرآن بكلمات العرب ، ولا إلى المقاطع والفواصل ، لأنها ليست بأصعب من الوزن والقافية فى الشعر ، ويذكر أن العرب الذين فى مقدورهم ذلك قادرون على المقاطع والفواصل ، كما أنه خيّل لبعضهم مثل ذلك [١] .

كما أنه لم يرجع بلاغة القرآن إلى اشتماله على الاستعارة وما يتعلق بأنواع البديع لأنها لا توجد فى كل الآيات ، وإذا صح ذلك فتكون بعض الآيات الخالية من البديع غير بليغة ولا معجزة ، ولا يرجع بلاغته إلى ألفاظه السهلة أو الغريبة [٢] .

وإنما تقوم بلاغة القرآن على تلاؤم معانيه فى الكلمات المفردة تلاؤما يساعد

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٩٦ وما بعدها ولعله يقصد بمن عارض القرآن فى مقاطعه وفواصله أبا العلاء المعرى « ولكن الرافعى ينفى عنه ذلك أنظر آداب العرب ١٨٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٠٤ .



على أداء المعنى العام المقصود فى جمال وقوة — وهذا مانفهمه من البلاغة الآن — ويتم نظم هذه المعانى نظما مستقيما متلائما بفضل علم النحو بمعناه الواسع الذى يشمله والبلاغة فى نظرنا [١] .

والعمدة فى إدراك هذا النظم وتلك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحانى وكثرة الاطلاع على كلام العرب [٢] إذ أن بلاغة القرآن شىء غير محسوس فيختلف فى تذوقه ، إذ المُلحد أو الشاكّ فى بلاغة القرآن لا يجد فيه من الروعة والجمال ما يجده المؤمن ، إذ قد يكون كتاب آخر يؤيد عقيدته وأفكاره أروعَ عنده من القرآن ، ولأنه ليس من المتيسّر اتّفاق الناس فى تقدير الجمال فى القول ، كما أنهم لا يتساوون فى إدراك الجمال المدرك بالحسّ ، كما أنه لاشك أن مقاييس الجمال حتى ما وضع منها فى عصرنا مهما بلغت الدقة لا توحّد بين أذواق الناس [٣] ، لأنهم لا يتفاوتون فى تقدير الجمال بتفاوت الأزمنة والأمكنة ، فما يُعدّ بليغا فى زمن لا يُعد كذلك فى زمن آخر ، ومايعدّ بليغا فى البَدْو لا يُعدّ كذلك فى الحَضَر .

وعبد القاهر يُعتبر بحقّ قدوةً لدارسى بلاغة القرآن ، إذ يُعتبر مفكّرا مَرِن التفكير ، حيث يجعل بلاغة القرآن شيئا لا يدركه كلّ الناس على السواء .

إلا أننى آخذ عليه إهماله موسيقَى الألفاظ وفصاحتها مفردة ومركبة ، والتمس له العذرَ فى ذلك لأن نظرية الألفاظ وبلاغتها قد أعلنت الحربَ شعواءَ على المعانى وبلاغتها ، لذلك نجده قد جنّد نفسه لنصرة المعانى وبيان قيمتها فى نظم الكلام .

— ٩ —

ثم نرى عالما آخر يتكلّم عن بلاغة القرآن فى كتاب له متأثّرا فيه بمن سبقه

---

(١) دلائل الإعجاز : ٦٤ وما بعدها

(٢) المصدر نفسه : ٤١٨

(٣) انظر مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٥٣ ص ١٥



من العلماء ، وأكثر من هذا أنه جمع فيه خلاصة ما قاله عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » .

وهو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ، فإنه أورد ذلك فى كتابه « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » . والحقيقة أن الرازى يرمى من وراء ذلك إلى الكشف عن الفنون البلاغية فى القرآن ومدى أثرها فى إعجازه للبشر ، ويرى أن إعجازه وبلاغته راجعان إلى الفصاحة التى يشتمل عليها نظمه . وبدائعه التى راعتهم من مبادىء الآيات ومقاطعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وأوجب على العاقل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ما هى؟ ، وكم هى؟ ، وكيف هى؟ ، ولا يمكن ذلك إلا بالكشف عن حقيقة كل من المجاز والحقيقة ، والاستعارة ، والتشبيه ، والتمثيل ، وحقيقة النظم ، والتقديم ، والتأخير ، والإيجاز والحذف ، والوصل والفصل ، وسائر وجوه المحاسن المعتبرة فى النظم والنثر (١) .

ثم أخذ بعد ذلك يوضح بالكشف والتحقيق عن الأنواع البلاغية التى ذكرها ، ولعله كأستاذه عبد القاهر يرى أن علم النحو بمعناه العام يشمل البلاغة أيضا ، لأنه تكلم عن أشياء من صميم النحو كالعطف (٢) ، والحال (٣) ، والتمييز ، والحذف (٤) ، والإضمار ، والمبتدأ (٥) والخبر ، وما إلى ذلك

والرازى يرى أن « بلاغة القرآن » فى أسلوبه ، ومعانيه ، وألفاظه ، واشتماله على الأنواع البديعية .

— ١٠ —

مما تقدم نرى أن بلاغة القرآن وبديعه تطورت من دراسة لغوية إلى دراسة

---

(١) انظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز : ٦ — ٧ وتفسيره الجزء الأول : ٢٢٥ ط مصر سنة ١٣٠٧ هـ

(٢) المصدر نفسه : ١٣٢ (٣) المصدر نفسه : ١٣٧

(٤) » » : ١٣٩ (٥) » » : ١٥٧



بلاغية على يد بعض المفسرين والأدباء مع اقتصارها على بيان الألفاظ وسلامة التركيب، ثم قُصد بها النظم ، والأسلوب ، والمعانى ، والأثر فى النفوس والقلوب ، كما لم يترك مؤلفو كتب بلاغة القرآن ذكر بعض الأنواع البديعية وبيانها فى القرآن ، والتمثيل لها بآياته ، وكان غرض الدارسين فى كلّ ما سبق الكشف عن إعجاز القرآن .

فإذا ما وصلت هذه الدراسة إلى بديع القرآن لابن أبى الإصبع نجده فيما بعد من العلماء يعتمد فى دراسته على القول بأن القرآن بليغ بألفاظه وأسلوبه وتراكيبه وأثره ، بل يزيد أن القرآن بليغ بما فيه من التراكيب البديعية التى يعرفها العرب والمتكلمون بالعربية ، ويسمّون صاحبها بالبليغ أو البديعىّ ، فجمع الأنواع البديعيّة التى عُرفت إلى عصره ، وجديده الذى اخترعه فى كتابه « تحرير التحبير » ومثّل لهذه الأنواع بآيات القرآن ، وخرّج تلك الآيات على الوجوه البلاغية ، والأنواع البديعية، مبيّنا فى دراسته لهذه الأنواع سلامةَ نظم القرآن ، وسلاسة أسلوبه ، وبلاغة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ، فلم يصنع أحد من العلماء قبل ابن أبى الإصبع صنيعه فى تأليف كتاب تتميّز فيه بلاغات القرآن وبديعه ، ليسهل من وراء ذلك استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه وإيجازه ، فكان بذلك متفردا فى هذه الدراسة وإن سبقه غيره إلى تطبيق بعض هذه الأنواع فى القرآن ، كأبى هلال العسكرى والرمانى ، إلا أنه لم يكن على سبيل الحصر لهذه الأنواع ، أو على سبيل الخاصية لدراسة بلاغة القرآن .



الفصل الثالث

فى التعريف بالمؤلف

أولا : عصره

بعد أن تكلّمت فى الفصلين السابقين عن تطوّر كلمة بديع ، وتاريخ الكتابة فى بديع القرآن وبلاغته ، رأيتُ من اللازم علىّ أن أعرّف بالمؤلّف ، لأضع صورةً واضحة عنه فى هذا التقديم ، وسأبدأ الكلام عن عصره السياسى ، والاجتماعى ، والثقافىّ ، مُعْنَى بالناحية الأدبية .

عصره السياسى :

١ — عاش المؤلّف معظم حياته فى ظلّ الدولة الأيوبية ، وشطر من دولة المماليك البحرية ، والدّولة الأيوبيّة قد حكمتْ مصر الوطنَ الأصلىَّ لابن أبى الإصبع من سنة ٥٦٧ هـ — سنة ٦٤٨ هـ .

ويلاحظ أن حكومة الدولة الأيوبية كانت سلطنةً وراثيّة بعد أن حصل عليها صلاحُ الدين الأيوبىّ من الخليفة العباسى سنة ٥٧٢ ، فكان يلقّب بالسلطان هو وأولادُه من بعده ، إلى انتهاء الأسرة[1] ، وكانت مصر فى هذا الوقت مطمحَ أنظار الصّليبيّين ، وبعض الأمراء المصريين الذين يطلبون الاستيلاء عليها والظّفر بها ، فكثرت الفتن ، واشتعلت نارُ الحرب ، ودبّت فى مصر الفوضى والاضطراب ، فقامت الحروب الصليبية بين الأيوبيّين والإفرنج ، وكانت الحرب سجالا ، وانتصر فيها الأيّوبيون انتصاراتٍ عظيمة ، فاتّسعتْ رقعة

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٦/٣٨٧



البلاد ، ثم قسّمت هذه الدولة بعد السلطان صلاح الدين إلى ولايات يحكم كلّ ولاية سلطانٌ من سلاطين الأيوبيين .

وتولّى حكمَ مصر بعد صلاح الدين على التوالى : السلطانَ العزيز عماد الدّين عثمان ، والمنصور ناصر الدين محمد ، والعادل سيف الدين أبو بكر ، والكامل ناصر الدين محمد ، والعادل الثانى ، والصالح نجم الدين أيوب ، والمعظم تُوران شاه ، وعصمة الدين أم خليل شجرة الدر ، وبانتهاء حكم شجرة الدر انتقل حكم مصر إلى السلطان الملك المعز أيبك التركمانى رأس المماليك البحرية .

٢ — وذُعرُ المصريين فى هذا العهد لم يكن سببه فقط الحروب الصليبية التى خلعتْ على صلاح الدين وخلفائه من بعده صفات القوة والشجاعة ، والذود عن الإسلام ، بل قامتْ هناك فتنٌ داخلية متعدّدة ، أهمّها الفتن بين الأمراء الأيوبيين كالتى كانت بين العزيز عثمان ، وأخيه الأفضل ، وبين الأفضل وعمه العادل ، والسلطان العادل ، والسلطان المنصور بن السلطان العزيز عثمان (١) ، كما لم تعدَمْ مصر فى هذه الفترة ثورات فاطمية كانت تُقابَل بالشدة (٢) ، كما أن العربَ الضاربين بيوتَهم حول مدينة دمياط على اختلاف قبائلهم كثيرا ما كانوا يقومون بثورات إجرامية الغرض منها النهب والسلب ، وقطع الطريق ، وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشدّ على المسلمين وقعا من الإفرنج (٣) ، ومن الثورات : ثورة ابن المشطوب (٤) وأعوانه الذين انقادوا لأمره . كل هذا والسلطان الأيوبى يسيطر على زمام الحكم ، يعاونه نوّابُه والمخلصون من رجال دولته ، والأبناء والإخوان الموالون ، إلى أن انتهت الدولة الأيوبية ، وقامت الدولة المملوكية ، ونظام الحكم فيها مرتبط إلى حدّ بعيد بطبيعة نشأتهم المعتمدة على القوة والفروسية ، فكان سلطانُهم أشدَّهم بأسا ، وأقواهم سلطة ، وأكثرَهم أعوانا ، كما كان بقاء أحدهم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢

(٢) السلوك للمقريزى ١/١٠١ (٣) الكامل لابن الأثير ١٢/٢١٢

(٤) هو الأمير سيف الدين أبو الحسن على بن أحمد الهكارى



فى السلطنة رهينا بقوّته وحماية جنده له ، وكان الحكم مركزًا فى يد السلطان ، فهو الذى يعيّن رؤساءَ الدواوين الكبرى ، والموظفين والكتّاب .

٣ — هذه الحالة السياسية التى أشرنا إليها لم يشترك فيها ابن أبى الإصبع بسيفه ولا بقلمه ، بل اعتزل السياسة ، واقتصر على الحياة فى ظلها لا غير ، مع أن الميدان أمامه كان فسيحا ، وهو شاعر يحسّ ما حوله ، ويتحرّك له شعوره ، كان خليقا أن ينطق لسانه بما يخالج نفسَه ، فيناصر مَلِكا ، أو يعضّد سلطانا ، أو يطلب عملا فى هذه الدولة المترامية الأطراف ، ولكنه آثر العكوفَ على العلم والتأليف ، صنع رجال الزّهد فى المناصب والانصراف عن الحروب والثورات ، فلم نره فيما لدينا من المصادر أو ما وصل من شعره أنه مدح سلطانا يبغى جائزة أوجاها ، أو شايع ملكا ، أو ناصر سلطانا أيوبيا على أخيه — مع كثرة الخلاف بينهم — كما لم نجد أنه تولى من وظائف الدولة شيئا كغيره من العلماء والشعراء الذين عاصروه أمثال البهاء زهير الذى تولى ديوان الإنشاء ، وابن سناء الملك الذى أكثر من مدح بعض ملوك الأيوبيين ؛ ولعله اختار لنفسه السلامة من عقابيل السّياسة وما تجرّ مواقفها من محن وويلات ، شأن العلماء ذوى التجارب والبصائر .

* * *

عصره الاجتماعى :

١ — بعد معرفة الحالة السياسية فى عصر ابن أبى الإصبع ، وما كانت عليه من اضطرابات داخلية ، وحروب صليبيّة ، لا يمكن أن تكون الحالة الاجتماعية فى مصر مستقرة ، وهى وإن كانت غنيّة يأتيها المال من موارد عدة ، كالجزْية التى كانت تصل إليها من الإمارات ، والضرائب التى كانت تُجبَى ، والكنوز التى وَرِثها الأيوبيون عن الدولة الفاطمية ، وما غنموه أيضا من الأسلاب فى الحروب ، وفدية كثير من الأسرى .



ولما كانت الحياة الاجتماعية ذات صلة قوية بالحياة الاقتصادية نجدنا هنا نلم بالأوضاع الاقتصادية كذلك ، حرصا منا على الاختصار فى التقسيم ، وفى تعداد الفصول .

فقد اهتم الأيوبيون أيضا بالزراعة ، والتجارة ، فطهروا الترع ، وأقاموا الجسور ، ونظموا وسائل الرى .

فالمقريزى يروى لنا عن السلطان الكامل الذى حكم مصر أكثر من أربعين سنة « أنه كان إذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه وكشف عن الجسور ، ورتب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه ، وجمع المهندسين والرجال لعمله ، ومتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقوبة ، فعمرت بذلك أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة[١] .

كما أنهم عقدوا المعاهدات التجارية مع أهل البندقية وغيرهم[٢] ، وأصبحت مصر ذات مكانة عالية فى الزراعة والتجارة ، وواسطة بين الشرق وأوربا .

والحالة هذه لم تتغير فى أول عهد الدولة المملوكية ، إلا أنهم اتسموا أكثر فى عقد المعاهدات التجارية ، وأدخلوا بعض أنواع الصناعات فى البلاد كالغزل والنسج .

ولكن كل هذه الأموال كانت تنفق على الجيش ومعداته ، وبناء الاستحكامات ، والقلاع والحصون ، وما بقى بعد ذلك يستخدم فى الإصلاح الداخلى .

(٢) ومع ذلك كثيرا ما كانت تنتاب البلاد أزمات اقتصادية ، وهزات اجتماعية تكاد تودى بحياة البلاد ، فكان الغلاء يشتد ، والأمراض تنتشر ، ومياه النيل تقل ، والأسعار ترتفع ، والوفيات تكثر ، والجوع يفتك بالناس ،

---

(١) السلوك ١/٢٦٠

(٢) انظر كتاب مصر فى العصور الوسطى : ٤٦٩



فكثر السؤّال ، وامتدتْ الأيدى إلى الخَطْف والسلب ، وصار أمر الموتى أكثر شغل الأحياء ، وجهر الناس بفعل المنكرات وارتكابها فى رائعة النهار ، وكثرت العربدة وخُطِفت الأمتعة ، وكثرت القتلى ، ولم يؤخد لهم بثأر [1] ، وأكل الناس بعضهم بعضا [2] ، فاضطر أهل مصر إلى الرحيل بأهليهم فراراً من الجوع ، أو من القتل .

كما كانت مصر لا تعدم محاربة الطبيعة لها ، فكانت تهبّ عليها عواصف شديدة تهلك الحرث والنسل [3] ، وتراكمت المصائب على الناس ، فغلب على جمهورهم الحزن والاستسلام ، وانتشر بينهم الشعور بالعجز والضعف التام ، ولجأوا إلى الله رجاء أن يمدّهم بعونه ويكشف عنهم الضرّ ، وإلى الرسول يستغيثون به على دفع ماحاق بهم من بؤس ، وإلى الأولياء يسألونهم العَون على قضاء الحاجات .

(٣) وكان المذهب الإسلامى السائد لهذا العهد هو المذهب السنّىّ الذى أقامه الأيوبيون على أنقاض المذهب الشّيعى مذهب الفاطميّين ، وكانت طبقات الشعب تتكون من سكان البلاد الأصليين ، والجيش ، وكان جمهوره من المنصرَين الكُرْدىّ والتركىّ ، وأهل الذّمة — النصارى واليهود — وكان المسيحيون يتميزون عن غيرهم بتلك الزّنّارَات التى كانت تطوّق أوساطهم ، فى حين تميّز اليهود بلبس العمائم الصفراء [4] .

ولم يتغير فى أول عهد الدولة المملوكية مذهبُ الدولة ، لأنّ الناس على دين ملوكهم ، والمماليك أتباع الأيوبيين ، إلا أن طبقات الشعب حدث فيها تغيير ، فكان يتألف من المماليك أرباب السيف ، وقد عاشوا عيشةً تكاد تكون منفصلةً عن الشّعب ، والموظفين الذين كانوا يتولّون شئون البلاد من أعمال

---

(١) انظر السلوك للمقريزى ١/١٣٠ — ١٣٨

(٢) السلوك ١/١٥٦

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣ .

(٤) مصر فى العصور الوسطى : ٤١٣ .



الحِسبة والقضاء ، ومنهم العلماء ، والتجّار و الصنّاع ،وهم أغلب سكّان المدن ، والفلاّحين ، وهم المرتبطون بالأراضى الزراعية .

(٤) وابن أبى الإصبع ممّن عاش فى العصرين : عصر الدولة الأيوبية ، وصدر الدولة المملوكية ، وكان من أفراد هذا الشعب ، ومما لا شك فيه أنه لم يكن من طبقة المحاربين ، ولا المزارعين ، وإنما كان من العلماء الذين بذلوا أقصى جهدهم فى التأليف ، وحياتهم فى الشعر ، ولم أعثر فيما قرأت من كتب التاريخ ، وكتب الطبقات ، ولا فى مؤلفاته على ماأستطيع أن أعرف على وجه التحديد منه وظيفته فى الدولة ، والذى عرفته أنه كان مقصدا للناس يأوى إليه الشعراء ويعرضون شعرهم عليه ، فيختار منه ما يروقه ، ويرد مالا يعجبه،أو مالا يتفق مع قانون الشعر فى نظره ، ولا شك أن هذه هى وظيفة العالم المؤدّب والمربّى الفاضل ، وإن لم يكن مكلفا بذلك .

* * *

عصره العلمى

(١) إننى إذا أخذت فى بيان الحياة العلميّة فى عصر ابن أبى الإصبع طال بى الحديث لما كان فى هذا العهد من فتن واضطرابات ، وحروب ومجاعات أثرت فى الحركة العلمية، وبخاصة فى الأدب . فأدب مصر قبل هذه الفترة كان أدبا فاطميا ، لأن أدباء الدولة الفاطمية كانوا مجنّدين لخدمة عقيدتهم ومذهبهم الشيعى ، فلما انتهت تلك الدولة ، وقامت الدولة الأيوبية عطف رجالها على العربية وآدابها ، لأنهم وإن لم يكونوا عربا فقد ناصروا اللغة العربية ، لأنها لغة دينهم الذى اشتهروا بحمايته والذود عنه ، ولأنهم لا غنى لهم — وهم غرباء عن مصر — أن يستعينوا فى حكمها بمن فيها من وزراء وعلماء،وقضاة وشعراء ، فعُنِى القوم بآداب لغتهم عناية فاقت عناية المشارقة إذ ذاك ، وكانت الحركة العلمية وآثار العلماء والمؤلفين أكثر مما كانت قبل،ونبغ العلماء فى كل فن ،فكان عصر الدو[لة]

الأيوبية والملوكية حافلا بالتأليف والمؤلفين ، لأن من عجز عن مناوأة أعداء الإسلام بسيفه ، وجد ميدانا فسيحا يسهم فيه لرفع شأن بلاده بقلمه وعلمه ، فظهر فى هذا العصر كثير من المؤلفات ، ككتاب « منهج القاصدين فى فضائل الخلفاء الراشدين[١] وكتاب « السول فى مناقب الرسول[٢] » و « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان[٣] » و « الآداب النافعة[٤] » و « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك[٥] » و « المثل السائر[٦] » و « تحرير التحبير[٧] » ، وغير ذلك من مؤلفات العلماء، ودواوين الشعراء .

(٢) وعنى صلاح الدين وخلفاؤه من بعده بتشييد المدارس وخاصة الدينية منها ، فبنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من مسجد الإمام الشافعى ، ومدرسة الناصرية ، والمدرسة السنية ، وبنى السلطان الكامل « دار الحديث[٨] » .

ولم تقفف عناية الأيوبيين بالمدارس عند تشييدها ، بل وقفوا عليها الأوقاف الكثيرة ، ورتبوا لها العلماء ليدرسوا فيها ، وكثرت المناقشات والمباحثات فى هذه المدارس ، وحضرها السلاطين وشجعوا عليها وعلى طلب العلم تشجيعا كبيرا ، وكانت هناك فكرة تسيطر عليهم ، وهى « أنهم يحسنون إلى العلماء والفقهاء ، ويرون أن الإحسان إليهم أفضل من الإحسان إلى الفقراء ، لاشتغال الفقيه بالعلم عن التفكير فيما يغنيه[٩] » .

---

(١) لموفق الدين المقدسى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٠ .
(٢) لكمال الدين بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٤ .
(٣) لسبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ .
(٤) لابن شمس الخلافة الأفضلى المتوفى سنة ٦٢٢ .
(٥) لأبى الفضائل عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس .
(٦) لابن الأثير ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد ابن عبدالواحد المتوفى سنة ٦٣٧ .
(٧) لابن أبى الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤ .
(٨) المواعظ والاعتبار للمقريزى ٢/٣٧٥ .
(٩) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٦ .



وكان صلاح الدين رأسُ الدولة الأيوبيّة كثيرَ التواضع ، محبا للناس ، وخاصّة الفقهاء وأهل الخير منهم ، ويستحسن الشعر الجيّد ، ويردّده فى مجالسه فقصده كثير من الشعراء . وعلى طريقته سار خلفاؤه ، إذ كان منهم شعراء وخطباء ، فعظُم شأن الشعر والخطابة ، وكثر الخطباء والشعراء ، وكان جلُّ همّهم التحريض على الجهاد ، والكفاح ، والترهيب من التقاعد . وظهر أيضا الأدب القصصىّ لنشر الدعوة إلى قتال الصليبيّين ، وعُيّنَ القصّاصون فى المساجد والجيش يَذكّرُون للناس سِيرَ الأولين ، فيشعلون فى القلوب الرغبة فى الجهاد .

(٣) ومما لا شك فيه أنّ علوم الشريعة كالفقه والحديث وعلوم القرآن كانت تحتلّ المكان الأوّل فى هذه الثقافة ، ولم يَحظَ الفقهُ والحديث ، ومسائل الخلاف بحماسة حكومة إسلامية بقدر ما حَظِيتْ فى عهد الدولتين الأيوبية والملوكية ، وإذا كانت السيطرة العظمى فى الميدان العلمىّ للفقه والحديث فى العصر الأيوبى ، فمعنى هذا أنّ العناية كانت على أتمّها بسائر العلوم المتعلّقة بالدين التى منها التفسير ، والفرائض ، والقراءات ، والأصول ، وما إليها من المواد التى تتألف منها الثقافة الدينية ، ولم يكن هناك تخصص على ، بل كان العلماء يجمعون ألوانا من المعرفة ، ويغلب على أحدهم الميلُ إلى ناحية معيّنة من العلوم . وظفر النحو والبلاغة فى هذا العهد بحظّ عظيم من العناية ، وسبب ذلك أن هاتين المادتين كانتا ضروريتين لدراسة القرآن والسنّة ، بل إن الفقيه كان لا يمكنه أن يجيد دراسته دون أن تكون له دراية واسعة فيهما ، كما كانت بجانب هذه الثقافات الدينية واللغوية والبلاغيّة ثقافة أدبيّة ، إذ كانت للأدب سُوق نافقة فى هذا العصر ، وكانت دراسته كذلك تُعين على فهم الدين ، وعلى تكوين ذوق لغوى مستقيم[1] .

(٤) وقد عانت البلاد فى هذا العصر وَيلات الحروب الصليبية التى كان لها خطرها على كيانها السياسىّ والاجتماعى ، فلا عجب أن تكون شغلَ أهلها

---

(١) انظر الروضتين فى أخبار الدولتين ٢/٢١٩ .



الشاغل، وأن تؤثّر فى عقولهم وآدابهم ، فكان أدبهم أدبا عاطفيا حماسيّا، تغذّيه عاطفة الدين ، وعاطفة الجنس ، وعاطفة اللغة ، على عكس أدب الفاطميين الذى كان يعتمد على الطابع العقلىّ ، إذ الأديب أو الكاتب أو الشاعر أمام مبادىء ودعاوى يريد أن يقيم الأدلّة عليها ، ويوضح البراهين على صحّتها ، ليصل بذلك إلى درجة الإقناع .

فظهر فى أدب الأيوبيّين كلام كثير عن الدين ، والآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، وحشر ونشر ، وجنة ونار .

كما ظهر فى أدبهم قصائد طريفة فى مدح النبى صلّى الله عليه وسلّم ، والتغنى بما تجلّى من آيات باهرات ساعةَ مولدِه ، وساعةَ بعثِه ، ولابن أبى الإصبع قصيدة يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ويبين فيها بلاغة القرآن ووصفه .

٥ — واتّجه الأدباءُ والشعراء بالأدب والشعر اتّجاها جديدا بالغوا فيه ، وهو الإغراق فى البديع والحلية اللفظية ، وقهر المعانى ، وجعلها تابعةً للألفاظ ، ولا سيما أنه قد ابتُدعت فى هذا العصر أنواعٌ شتى من الحلية اللفظية أُغرِم بها الكُتّاب والشعراء ، قيّدوا أنفسهم بقيودها ؛ حتى أصبحت أحبّ إليهم ، وأسهلَ عليهم من طريقة الترسّل ، ولكن قلّة قدرتهم على تملّك زمام البلاغة أتاح لمساوىءُ هذا الاتجاه أن تظهر فى أدبهم ، واستطالت الألفاظ على المعانى فجنتْ عليها ، وفى هذا الطريق سار المصريون شوطا بعيدا حتى وصلت أنواع البديع فى القرن السابع الهجرى إلى مائة وعشرين نوعا على يد ابن أبى الإصبع .

كما أن بطولة صلاح الدين وأولاده وقوّاده فى حروب الصليبيّين بمصر والشام ظلت خلال قرن تقريبا .

أقول : إن هذه الانتصارات التى توّجت بالنصر على الأوربيين جعلت مكانَ القول ذا سعةٍ أمام الشعراء ، وكان ذلك حافزا إلى أن يبلغ الشعر درجة عظيمة ، وأن يكثر عدد شعراء الدولة الأيوبية .

٦ — ومما لاشك فيه أن ابن أبى الإصبع شارك فى الحياة العقلية لهذا العصر ، فكان مؤلفا من المؤلفين ، وأديبا من الأدباء ، وعالما من العلماء ، وشاعرا من الشعراء ، له التصانيف القيّمة فى البديع ، وعلوم القرآن ، فألّف « تحرير التحبير » فى بديع الشعر والنثر ، و « بديع القرآن » كما صنّف فى علم العروض والقافية « الكافية فى علم القافية » .

واستجاب للرّوح الدينيّة التى كانت مسيطرة على العلماء ، تدفعهم إلى دراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن ، فألف « الكافلة فى تأويل تلك عشرة كاملة » و « الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » ، وهذا ليس بغريب عليه ، فإن المطّلع على كتابه « بديع القرآن » يحِسّ اهتمامه بتفسير بعض الآيات ، وتأويلها وتخريجها ، ومعارضة بعض المفسّرين ، كما لم يُغفل الكلامَ عن السموات السبع ، وما فى ذلك العدد من السّر الإلهىّ ، وتكلّم عن النجوم والاهتداء بها ، وأنوائها ، وإنزال الغيث والمقدّمات التى تتقدّمه من الرعد والبرق وتصريف الرياح ، كما كان له الشعر البديعىّ الجزل ، وقد قاله فى أغراض شتى سأعرض لها عند الكلام على شعره فيما بعد ، بيد أنى لم أر له شعرا سياسيا فيما قرأت له من الشعر ، بل كان جُلّ ما رأيت له كلمات فى مدح الرسول وصفات القرآن والوصف والهجاء ، ولعلّ لابن أبى الإصبع شعرا سياسيا فى وصف المعارك والإشادة ببطولة سلاطين عهده ، ورجال دولته ، ولكنه لم يصل إلينا كغيره من مؤلفاته التى ذكرها فى كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » .

كانت الحالة العلميّة على ما وصفت أيامَ الأيوبيين ، وقد أوضحتُ تأثّر ابن أبى الإصبع بها ، وأثره فيها ، فلمّا حلّت الدولة المملوكية ، لم تتغيّر هذه الحالة فجأة ، بل استمرّ النشاط العلمىّ والأدبىّ فترةً من هذه الدولة الحديثة ، لأن الحياة الاجتماعية والعلمية لأمّة من الأمم لا تتحوّل جملةً بتحوّل الحاكمين .



ثانيا — حياته

نسبه :

هو أبو محمد زكىّ الدين عبدُ العظيم بن عبد الواحد بنُ ظافر بن عبد الله ابن محمد المصرىّ، المعروف بابن أبى الإصبع العدوانى(١) .

من أين أتته هذه الكنية ؟ ولِمَ لُقّب بالعَدوانى ؟ أكان من عدْوان ؟ أيتّصل نسبه بذى الإصبع الشاعر القديم ؟

لعلّ هذه الكُنية كنية أبيه ، وأبوه كنىّ لأمر ما بأبى الإصبع ، فأضاف إلية الناس « العدوانى » لما كان « أبو الإصبع » يحضر فى الذهن « ذا الإصبع » وخاصّة أن لقب العدوانىّ لم يأت فى نسبه إلا فى مصدر واحد .

أو لُقّب بذلك تيمّنا لما كان له من شهرة ذائعة فى الشعر ، وإنى لا أستبعد اتصال نسبه بذى الإصبع العدوانى الشاعرالجاهلى ، وإن كانت سلسلة النسب التى وردت له فيماوصلتُ إليه من كتب التراجم والطبقات والتاريخ لا توصل نسبه إلى العصر الجاهلى ، كما أنه لم يرد على لسانه أو فى مؤلفاته ما يشير إلى نسبته إلى « ذى الإصبع » وخاصة بعد الاطّلاع على ترجمته فى النسخة التى رمزت لها بالحرف (ا) والتى يقال عنها إنها كتبت فى عهد المؤلف(٢) .

---

(١) ترجمته فى مسالك الأبصار ، ٦/٢٣٠ مخطوطة، عيون التواريخ ٢٠ : ٧٣ — ٧٥ ، حسن المحاضرة ١/٣٢٧ ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٧/٣٧ ، المنهل الصافى ٣/٤٠٥ مخطوط ، كشف الظنون ١/١٨٨ ، فوات الوفيات ١/٣٧٤ ، شذرات الذهب ٥ / ٤٣٩ ، معاهد التنصيص ٤ / ١٨٠ ، الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلى ٢ / ط مصر ١٣٣٧ .

(٢) هذا قول معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، على الميكروفلم لهذه النسخة .



مولده :

قيل إنه ولد رحمه الله بمصر سنة ٥٨٥ ، وهى السنة التاسعة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين الأيوبىّ على مصر ، وقيل إنه ولد فى سنة ٥٨٩ أى السنة الأولى من ولاية الملك العزيز بالله عماد الدين أبى الفتح عثمان على مصر ، من أبوين لا أعرف لهما نسبا ولا وظيفة أكثر مما ذكرت .

نشأته :

بعد هذا التقديم الذى كشفت فيه عن عصره السياسى والاجتماعى والثقافىّ ونسبه ومولده والبيئة التى ولد فيها ، أريد أن أبين كيف نشأ فى هذه البيئة ، وكيف كانت حياته فيها .

١ — عاش ابن أبى الإصبع فى هذه المملكة المترامية الأطراف يَجُول بين رُبَاها ويحظَى بما فيها ، استوطن القاهرة فكان شاعرَها الأوّل ، وقت أن كان جمال الدين أبو الحسين الجزّار شاعرَ الفسطاط(١) ، ومن الطبيعىّ المسلّم به أن يكون قد تربى فى مدارسها التى أنشأها سلاطين الدولة الأيوبية ، إلى أن كان أديبَها الذى تأوى إليه الشعراء ، يعرضون شعرَهم عليه ، ويطلبون منه الإجازة به ، كما فعل ذلك « جمال الدين الجزّار » شاعر الفسطاط ، إذ روى عنه صاحبُ « المنهل الصافى(٢) » مانصّه : « قيل . لما كان أبو الحسين الجزّار صغيرا ، نظم أبياتا قلائل ، وكان أديب ذلك الزمان ابن أبى الإصبع ، فأخذه أبوه ، وتوجه به إليه وقال له : ياسيدى ، قد نظم هذا الولد شعرا ، واشتهى أن يعرضه عليك ، فقال ابن أبى الإصبع : قل . فلمّا أنشده قال له : أحسنت ، والله إنك عوّام مليح ؛ فراح هو ووالده ، وبعد أيام عمل والده طعاما ، وحمله إلى

---

(١) الحركة الفكرية فى عصر الدولة الأيوبية ٢٥٧ ، والمغرب لأبى سعيد ١٢١/٤ .

(٢) الجزء الثالث ٤٠٥ مخطوط .



ابن أبى الإصبع ، فقال له : لأى شىء فعلتَ ؟ فقال : لشُكرك ولدَ الملوك . فقال : أنا ما شكرتهُ ، فقال : ألم تقل له : إنك عوّام مليح ؟ فقال : ما أردتُ بذلك إلاّ أنه خرج من بحرٍ إلى بحر » .

كما كان بليغَها الأوحد الّذى لم يُلحَق شأوهُ ، ولم يُشَقّ غبارهُ ، وهذا ما حدثنا به صاحب « مسالك الأبصار » عندما تكلم عن علماء البلاغة فى مصر ، فقال : « وأما مصر فلم يقع إلينا من أهلها إلا واحد ، وواحد كالألف ، وهو الزكىّ عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المعروف بابن أبى الإصبع ، جدّ حتى انقاد له الحظّ ، وسهر حتّى رقّ عليه قلب الليل الفظ ؛ طالما محا الشكّ بإدراكه ، وتنحى سُهَيل فوقع فى أشراكه ؛ مرّ على قطائع الكواكب فساق قلائصها ، وسام فى طرائد الليل قنائصها ؛ وكان بمصر وله مثل مقطّعاتها ، ونظير مصبّغات ربيعها ومصبّغاتها ، قطعٌ شعر هى السحر الحلال ، والبارد العذب لاماء النيل الزلال ، وعليه تخرّج جماعة من المتأخرين من الأدباء » .

إننا نأخذ من ذلك فوق ما تقدّم من مكانته الفذّة بين علماء البلاغة ، أنه كان رجلا عصامياّ ، استطاع أن يحلّق فى سماء الفنّ والعلم والمعرفة ، وأن يجلّىَ فى حلبتها بجدّه واجتهاده ، وأنه بجانب ذلك كان أستاذا يتخرّج عليه الأدباء والعلماء ، وقد كان بهذا جديرا ، فهو واحد كألفٍ على حدّ تعبير النصّ .

٢ — وقد سبق أن قلنا : إنّ مدارس العصر كانت كثيرة ، وخاصّة فى القاهرة الّتى كان يسكنها ، ولكنّ كتبَ التاريخ والتراجم التى ترجمت له لم تحدّثنا أنه ذهب إلى مدرسة تعلّم فيها ، أو جلس إلى شيخ تلقّى العلم عليه ، أو نزح إلى بلد ليَنهل من رحيق علمه ، ولكنه مع هذا كلّه كان أديبا بليغا نحويا فقيها . كما يدلنا على ذلك صاحب السلوك[1] فيما أورده فى ترجمته . وطبيعى أن يكون قد تلقى هذه العلوم فى هذه المدارس على أساتذتها المشهورين فى هذه الفنون ، أو تلقاها عن كتب الأقدمين من العلماء — وما أكثرَها — ويظهر

(١) الجزء السادس ٢٣٠ .



ذلك جليّا لكلّ من يطالع كتبه ، فإنه يلمس مدى تأثره بمن سبقه من العلماء ، وخاصّة « عبدالقاهر الجرجانى » و « فخر الدين بن الخطيب الرازى » صاحب « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » و « ابن سنان الخفاجى » صاحب « سر الفصاحة » إذ أنه كثيراً ما ينقل عن هذه الكتب ، ويستشهد بما فيها من آراء .

وأرجّح أنه لم يخرج من أبنـــاء عصره وسنة الطبيعة ، أى أنه تعلّم فى مدارس ، وجلس فى حلقات علمائها ، وبادَلهم الرأىَ فى عزّة الواثق بنفسه ، كما يحدّثنا فى مقدّمة كتابه « تحرير التحبير » أنه قابلَ التّيفاشى (١) ، وناقشه فى البديع وأعجب به « وحسْبُه أنه يتأدّب ويتعلّم على كتب السابقين الّتى جمعها فى كتابه ، وخاصّة كتب البلاغة والبديع ، وصار يعرِض رأى كلّ واحد فى كتابه ويناقشه ، ويحلله تحليلَ العالم البصير ، والناقد الخبير ، فلم يعتمد على النقل فقط ، بل على النقل والنقد معا ، وتلك كانت حياته بين علماء عصره .

٣ — فأما عن علمه ، فإن الناظر فى آثاره ، وخاصّة كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » ليلمَح فيهما جليا أن مؤلفهما كان أديبا نابغا كما يُحس ذلك من شعره ، كما أنه كان دقيق الحسّ ، قوىّ الشعور بالجمال ، فقد جمع آراء مَنْ سبَقه إلى التأليف فى علم البديع ، وزاد عليها ، ورتّبها ، وصنّف فيها مصنّفات قيّمة ، منها ماهو بين أيدينا ، ومنها ما لم يسعدنى الحظّ بالوقوف عليه ، أو الاهتداء إليه ، وإنى سوف أضع بين يدى القارئ بعض النصوص التى تدل دلالة واضحة على شغَفه بالبديع وحبه إياه ، وهذا ليس بغريب عليه . فالبيئة التى عاش فيها ، وتأثّره بها هى التى أملت عليه ذلك ، كما أنى لمست من فَحوى مصنّفاته استمداده الفطرىّ ، وذكاءه الوقّاد ، وكان لذلك كلّه أكبر الأثر فى دراسته للبديع .

---

(١) الإمام العلامة شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر بن حمدون القيسى ، ولد بتيفاش وسمع بها من أبى العباس المقدسى ورحل الى مصر وتأدب على البغدادى وبرع فى كثير من الفنون ، وله الشعر الحسن والنثر الجيد والمصنفات المفيدة ، وتوفى بمصر سنة ٦٥١ هـ ودفن بمقبرة باب النصر .

٤ — ودراسته إياه لم تقف عند جمعه ، بل تمدته إلى نقد تلك الأنواع ، وتغيير تسمية مالم تعجبه تسميته ، أو ما لم يجد اسمه يطابق مسمّاه ، كما فعل بأبواب الأجدابى[1] « التسبيغ ، التشريع » فسمى الأول « تشابه الأطراف » والثانى « التوأم » ، وكتابه « بديع القرآن » يدلّ دلالةً واضحة على مقدرته العلميّة ، فلقد درس أنواع البديع بالقرآن دراسة وافية ، واستقصى فى التأمل من الألفاظ القرآنية عددا من الأنواع البديعية . ففى باب الاستدراك استشهد بقوله تعالى ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ[2] ﴾ فجعل هذه الآية استدراكا للآية السابقة ، فزال الإشكال الذى وقع فى الآية السابقة ، وارتفع ما قدر من الاحتمال ، وأبان عن المعنى أحسن بيان ، إلى توضيح ما فى ذلك من عجيب النظم ، وبديع الترتيب ، وحُسن النسق ، وغريب التنكيت ، وبليغ الإيجاز من وجوه الإعجاز ، فحصل فى هذه الكلمات أربعة عشر نوعا من البديع : الإيجاز ، والترشيح ، والإرداف ، والتمثيل ، والمقارنة ، والاستدراك ، والإدماج ، والإيضاح ، والتهذيب ، والتعليل ، والتنكيت ، والمساواة ، وحسن النسق ، وحسن البيان ، كما استشهد فى باب التوهيم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[3] ﴾ فيعلق عليها بما يفيد معرفته لعلمى النحو والتفسير معرفة جيّدة ، استطاع بفضلها أن يخرّج الآية تخريجا يؤدّى إلى المعنى المقصود ، وينعى على النحويين تخريجهم لعطف غير المجزوم على المجزوم ، فيقول : « وهذه الآية يؤلف فيها طريق الإعراب فى الظاهر من جهة عطف ماليس بمجزوم على مجزوم ، ليعدل عن الظاهر إلى تأويل يصحح المعنى المراد ، فإن المراد — والله أعلم — بشارة المسلمين بأن هذا العدّو لاينصر أبدا ما قاتل المسلمين ،

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسى اللغوى المغربى الإفريقى . ويعرف بابن الأجدابى توفى فى حدود سنة ٦٠٠ هـ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١١١ .



ليتكمل سرور المسلمين بخذلان عـــدوهم فى الحال وأبدا فى الاستقبال ، ولو عطف الفعل على ما تقدم على قاعدة العربية الظاهرة لما أفاد سوى الإخبار بأن العدو لاينصر فى الحال ، وهو زمان المقاتلة ، ووقت التولية ، ولا يعطى ذلك خذلانهم على الدوام فى كل حال ، فقد قال النحاة : إن الوجه فى هذا الموضع أن يقال : هو من عطف الجمل ، فإن التقدير: ثم هم لاينصرون ، ولـكن هذا الـكلام وذلك التخريج لم يعجبه ، ولم يَرُقْ عنده ، فعلّق عليه بما يدل على فهمه للنحو والتفسير وحذقه بهما ، ومعرفته التامة بأسباب النزول ، فيقول : وعلى هذا التخريج أى تخريج النحويين لايزال الإشكال باقيا ، ومع ذلك فإنه يقال : لم عدل عن مجىء الـكلام على قاعدة العربية المألوفة إلى ما يحتاج إلى التأويل ؟ وهلاّ قيل : وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصروا ؟ . فيحتاج المجيب إلى أن يقول : لما كان مجىء الـكلام على ما ذكرت غير محتاج إلى تأويل لا يوفى بالمعنى المراد ، لأن المعنى المراد بشارة المسلمين أن عدوهم متى قاتلهم كان مخذولا ، ومجىء الـكلام على ما ذكر المعترض لايوفى بذلك المعنى ، فإنه لايعطى إلا عدم النصر حالة المقـاتلة فقط ، فعدل عن ذلك إلى ما جاء به التنزيل ، ليـكون مجىء الثانى غير مجزوم ، وقد عطف على مجزوم منبها السامع إلى السبب الذى من أجله عدل عن قاعدة الإعراب ، فيفطن إلى أن ذلك إشارة إلى خذلان العدو أبدا ما قاتل المسلمين لمجىء الفعل دالا على الحال والاستقبال ، أما الحال فخذلان العدوّ حالة القتال ، وأما الاستقبال فالبشارة بأنه كذلك ما وقع منه القتال ، ولذلك عطف بـ « ثمّ » من دون حروف العطف لما يدل عليه من التراخى والمهلة ، ليأتىَ بعض الألفاظ ملائما لبعض ، فإن « ثم » دون حروف العطف ملائمة لما عطفه من الفعل الدال على الاستقبال .

٥ — وتـكلّم فى باب الإبداع عن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١) .

---

(١) سورة هود آية ٤٤ .



فقد استخرج منها ثمانية عشر ضربا من البلاغة سوى ما تعدّد منها مثل الاستعارة فإنها تعدّدت فى موضعين فى كلمتى الابتلاع والإقلاع ، وهذه الضروب هى المناسبة بين ابلعى وأقلعى ، والمطابقة اللفظية بين السماء والأرض ، والاستعارة فى ابلعى وأقلعى ، والمجاز فى قوله « ويا سماء » فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة فى قوله : « وغيض الماء » ، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء ، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء ، والإرداف فى قوله : « واستوت على الجودىّ » ، فإنه عبّر عن استقراره على السفينة فى هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكّنا لا زيغ فيه ولا ميل ، والتمثيل فى قوله : « وقضى الأمر » ، والتعليل لأن غيض الماء علّة الاستواء ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أحوال الماء حالة نقصه . والاحتراس من توهّم من يتوهّم أن الهلاك ربّما عمّ من لا يستحق الهلاك بالدعاء على الظالمين ، والانفصال ، فإن لقائل أن يقول : إن لفظة القوم تستغنى عنها ؛ فإنه لو قيل : « وقيل بعدا للظالمين » لتم الكلام والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه ، وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض حسبما وقعت ، الأول فالأول ، والتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح غيرُها مكانَها ، والإيجاز ، لأن الله تعالى اقتص القصة بلفظها مستوعبة فى أخصر عبارة بألفاظ غير مطوّلة ، والتسهيم لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : « أقلعى » يقتضى آخرها ، والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة وحسن البيان حيث أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ، والتمكين ، لأن الفاصلة مستقرّة فى قرارها ، مطمئنّة فى مكانها ، والانسجام ، وهو تحدّر الكلام بسهولة وعُذوبة سبك ، والإبداع الذى هو فى مجموع الآية ، علماً بأن هذه الآية لا تتجاوز سبع عشرة لفظة .

فأىُّ عالم هذا الذى يبحث فى ألفاظ قليلة يستخرج منها أنواعاً بديعية كثيرة ثم لا يترك النحويين يخرّجون الآيات تخريجاً يوافق قاعدتهم ، وإن لم يوافق المقصود من الآية ، بل ويرشدهم إلى المعنى المقصود إرشاد عالم بالنحو والتفسير كما أسلفت ، فلم يقف عند رأى النحاة مقلّداً لهم ، مترسّما خطاهم ، ناهجا طريقهم ، بل خرّج الآية تخريجاً يقتضيه المعنى وإن خالف النحويّين .

٦ — على أن جهود ابن أبى الإصبع لم تقف عند التأليف فى البديع واستخراجه من القرآن والشعر فحسب ، بل كانت له جَولاتٌ فى النقد مع الشعراء السابقين يتبع شعره بشعرهم ، ويحسن ذلك الاتباع ، فها هو ذا فى باب الاستتباع من كتابه (تحرير التحبير) يوازن بينه وبين ابن الرومى(١) فى بيت تبعه فيه ، وبيت ابن الرومى هو [البسيط]

سدّ السّدادُ فَمِى عمّا يُريبُكُمُ   لـكنْ فمُ الحَال مـنّى غيرُ مسدودِ

وبيت ابن أبى الإصبع : [الـكامل] .

هَـبْنى سكتّ أما لسانُ ضرورتى   أهجَى لـكلّ مُقصّر عن منطقِى

وقبل أن أعرض للموازنة بينهما أقول : إن ما عقده ابن أبى الإصبع من الموازنة يشمل الموازنة اللفظية ، والموازنة المعنوية . واحتفاؤه بالبديع أكثر ، وسأعلّق على كلامه بعد عرضه .

إن الناظر فى بيت ابن الرومى يجد أنه قد وقع له فيه من المحاسن البلاغية تسعة أضرب ، وهى التجنيس فى قوله : « سد السداد » ، والتفسير فى « عما يريبكم » ، والاستدراك فى قوله « لـكن » وما بعدها ، والاستعارة فى قوله : « فم الحال » والتصدير فيما بين القافية وأول البيت ، والتمثيل لأن البيت خرج مخرج المثل ، والمساواة لأن لفظ البيت طبق معناه ، والائتلاف لأن كل لفظة من مفردات

---

(١) أبو الحسن على بن العباس بن جريج أى جيورجيوس — المعروف بابن الرومى — الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، توفى سنة ٢٨٤هـ ببغداد ودفن فى مقبرة باب البستان . وهذا البيت ليس فى ديوانه المطبوع ، انظر الصناعتين : ٢١٥ .

ألفاظه لا يصلح مكانَها غيرُها . والإرداف فى قوله :

* لـكن فم الحال منى غير مســدود *

على حين وقع لابن أبى الإصبع فى بيته من الأنواع البديعيّة سبعة عشر ضربا يحكيها على لسانه فيقول :

« وهى المطابقة فى السكوت والنطق ، واستعارة اللسان للضرورة ، والمبالغة فى قوله « أهجى » والتكميل فى قوله « لـكلّ مقصبر » ، والتفسير فى قوله : « من منطق » ، والتمـكين من أجل أن القافية مستقرّة فى مكانها ، والمساواة فى تفاصيل البيت وجملته بالنسبة إلى بيت ابن الرومى . فإن قوله « كَمبْنى سكتّ » أوجز من قول ابن الرومى : « سـدّ الســداد فمى » ، لأن ملخّـص كلام ابن أبى الإصبع « سكت » وملخص كلام ابن الرومى « سـدّ فمى » وقوله : « أهجى » أوجز من قوله « غير مسدود » فهـذا إيجاز تفاصيل البيت ، وأما إيجاز جملته فحروف بيت ابن أبى الإصبع اثنان وأربعون حرفا ، وحروف بيت ابن الرومى خمسة وأربعون حرفا ، مع أنهما قد استويا فى عدّة المتحركات إذ فى كلّ منهما سبعة وعشرون متحرّكا .

وابن أبى الإصبع موفّـق فى تتبُّعه لابن الرومى . وبيته أوضح ، إذ أنه بعيد عن الـكـلْفة ، بخلاف ابن الرومى ، كما أن موقفه من شعر الجزّار غير بعيد .

* * *

ونقدُه لم يقف عند الشعراء ، بل كان يوجِّـهه كذلك إلى المفسرين ، ويحاجُّهم وينازعهم الرأى ، ويدحض الحجة بالحجّـة ، فها هو ذا فى باب « جمع المختلفة والمؤتلفة (١) » يعرض رأى المفسرين لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِـعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا (٢)﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا (٢)﴾

(١) بديع القرآن

(٢) سورة النساء ١٣ ، ١٤ .



ويقول : « ذهب بعض المفسّرين إلى أن جمع ضمير الخالدين مشير إلى أن الوقوف مع حدود الله تعالى وطاعته أمر متّبع يجب الاقتداء به ، فكل من عمل به تناوله هذا الوعد ، وتعدّى حدود الله معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فلا يجوز متابعة من يعمل به عليه ، فلذلك أتى بضمير الخالد فى النار موحّداً . وذهب غير صاحب هذا الرأى إلى أن ضمير الخالدين فى الجنة إنما جمع لقصد الملاءمة فى النظم بين جنّات وخالدين ، وجمع بين نار وخالد ليوصف الكلام بالملاءمة ، وحسن الجوار ، حتى يدخل فى باب ائتلاف اللفظ بمعناه ، وهذا الرأى أوضح من الرأى السابق .

ثم يأتى برأيه هو ، وهو أنّ سبب الجمع فى الأول أن كلّ من دخل الجنة خالد فيها أبدا ، وإن تفاوتت درجات الخالدين ، . بدليل قوله تعالى « وما هم منها بمخرجين » مطلقا فى حق كلّ من دخلها ، فساغ الجمع هناك ، ولم يَسُغ هاهنا ، لأن الخالدين فى النار فرقة واحدة ، ولأن المنافقين كفار فى الباطن ، والخالدين فى الجنة طبقات وجماعات على مقادير درجاتهم ، بحسب ما أعدّ لهم به من أعمالهم وإن عمّهم الخلود .

وإنى أرى أنه لم يُرِد برأيه هذا غيرَ إثبات المعنى ، والغَوص عليه ، والتأويل فى سبيل الوصول إليه : فهو وإن كان أوّل ووصل فى هذه الآية إلى ما يريد فماذا يفعل فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً[1] ﴾ وقوله تعالى . « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ[2] » .

وإنى مع اعتقادى بوجاهة رأيه السابق ، وهذا شأن البلاغيّين فى قضاياهم حيث يبهرون العقول بآرائهم فى ناحية ما من النواحى ، ثم لا يلبثون أن يتخلوا

---

(١) سورة الجن : ٢٣ .

(٢) سورة يونس آيتا ٤٢ ، ٤٣ .



عنها فى ناحية أخرى إذا وجدوها لم تسر معهم ، وعلى سَنَنهم ، أرى الحلّ لهذا الإشكال أن « من » يراد بها المفرد والجمع ، فمن أراد المفرد نظر إلى اللفظ ، ومن أراد الجمع نظر إلى المعنى . وقوّى جانب المعنى فى آية الوعد قوله : « يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » فالذى يدخل الجنات جمع ، وقوّى جانب اللفظ فى الوعيد قوله : « يدخله ناراً » .

* * *

ونراه فى باب « الانسجام » ينفى الشعرَ عن القرآن ، ويردّ على من أثبته فيه ، وإن كان الرد فى بديع القرآن مقتضبا فإنه كما قال بسط الردّ فى كتابيه « الشافية فى علم القافية » و « الميزان فى الترجيح بين كلام قدامة وبين كلام خصومه » ، ولم يسعدنى الحظّ بالوقوف على هذين الكتابين لعدم وجودهما ، وهذا نصُّ ما قاله فى بديع القرآن : « وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك الشعر إلا ما هو على مثال البيت فقط ، والبيت المفرد لايسمّى شعرا قصد أو لم يقصد ، وعلى ذلك أدلّة لا يتسع الكلام لذكرها ، وقد أتيتُ بها مستقصاة فى كتابين أحدهما : « الشافية فى علم القافية » والآخر « الميزان » » .

وأرى أن ردّه على من أثبت الشعر فى القرآن ضعيف ، من حيث إنه يثبت وجود الشعر فى القرآن بالبيت الواحد . والحقيقة أنه ليس فيه شعر بالبيت الواحد المقصود ولا بأكثر من البيت ، ولكن خُيِّل لذوى القرائح السقيمة والعقول الضالّة أنّ القرآن شعر ، ولم يخرج ما ادّعوه شعرا عن كونه كلاما موزونا فقط ، وغير مقفًّى ، ونحن نستطيع أن نزن كلّ كلام ينطق به أىّ إنسان ، ونستخرج البحرَ الذى يتّفق مع وزنه ، ولا نستطيع أن نقول عنه إنه شعر ، ولندَع الكلام فى هذا جانبا من حيث إنه ليس من أهدافنا .

* * *

ابن أبي الإصبع الشاعر

٧ – تكلمت عن ابن أبي الإصبع شاعرا بعد أن تكلمت عنه عالما و ناقدا ، وليس لديّ من شعره سوى مقطّعات يسيرة لا يستطيع الدارس أن يصل إلى حكم سليم عليها من الناحية الشعرية ، والناظر في شعره يتبيّن جليّا أنه عاش عيشة المفتنين المجيدين ، وأنه وهب نفسه للجمال ، وفكرَه للخيال ، فقد عاش حياته في القاهرة وضواحيها يتنقّل بين رُباها وخمائلها ، ويجول بين مُروجها وجداولها ، وهو شاعر الطبيعة ومصورُها ، قد امتلأتْ نفسُه وعينُه من جمال الحياة ، وجمال الفن ، فراح يُبرز هذا الجمال المنويّ في صُوَر مختلفةٍ من الجمال اللفظيّ ، فانتقى الألفاظ الصافية ، واختار الألوان الزاهية ، ودبجّها بزخرُفِ بديعهِ ، ووشّاها بكثيرٍ من مَجازِه وتشبيهه ، كما وصف كلّ ما وقع عليه بصره ، وسمعتْ به أذنه .

وإني أعرضُ الآن لأغراض الشّعر التي عرفها ابن أبي الإصبع ، والتي أمكنني أن أستخرجها مما عثرتُ عليه من شعره ، وليس معنى ذلك أن الأغراض التي لم تأت في شعره لم يعرفها ، أو يتكلّم فيها ، بل قد يكون عرفها وقال فيها شعرا لم يصل إلينا فيما وصل إلينا من شعره ، وهاهي ذي أغراضُ الشّعر عنده :

* * *

(١) تكلّم في الوصف ولكنه لم يصف معركةً حربيّة ، ولا ركوبَ سلطان ، ولا فتح مدرسة ، ولا وصف بناء مشيّدا ، بل وصف الخمر وكاساتها ، والطبيعة وعواصفها ، ولم أدر لم وصف الخمر وهو فقيه ، أكان يتناولها ؟ أم كان كلامه عنها من باب المحاكاة ؟ وإني أرجّح أن وصفه إياها كان من باب المحاكاة ، لأن جُلّ شعراء عصره كانوا فقهاء يتورّعون عن شرب الخمر .

ومن وصفه لمجلس شراب[١] [الطويل] :

---

(١) مسالك الأبصار ٦/٢٣١



وَساقٍ إذا ما ضاحَكَ الكأسَ قابلتْ
فواقعُها من ثغرِه اللؤلؤَ الرَّطبا
خشيتُ وقد أمسى نديمى على الدُّجَى
فأسدلْتُ دون الصبحِ مِن شَعرِه حُجُبا
وقسّمتُ شمسَ الطاسِ فى الكأسِ أنجُما
ويا طُول ليلٍ قُسِّمتْ شَمْسُه شُهْبا

وقوله فى وصف زَوْبعة : [الطويل] .

عَلاَ وَهَجُ الإعصارِ عند التفافِه فأخجل عَينى أن تغمّضَ جفنَيها
كراقصةٍ قد أسرعتْ دَوَرانَها
إذا انفتَلَتْ لفّت على الخَصر كمّيها

وكقوله أيضاً (١) : [السريع] .

أقول للناس وقد أنذرالـ إعصارُ من شاهدةٌ فى الهواءْ
تعوّذوا فى الأرض منْ فتنةٍ غبارُها يَصعد نحو السماءْ

وله فى وصف فرس أدهمَ محجّل (٢) : [الطويل] .

وأدهَمَ جارَى الشمسَ فى مِثلِ لونهِ
من المغرب الأقصى إلى جانبِ الشرقِ
فوافَى إليه قبلَها متمهلا فأعطاه من أنواره قصَبَ السَّبْقِ

والذى ألاحظه على وصف ابن أبى الإصبع أنه وصف حِسّى ليس فيه انفعال نفسىّ ولا تحليلىّ .

* * *

(١) مسالك الأبصار ٦/٢٣١ .
(٢) معاهد التنصيص ٤/١٨ .



(ب) ومن أغراضه التي عثرتُ عليها في شعره الغزل ، وهو وإن كان من أغراض الشعر الدائمة ؛ إلا أنه كثر في شعر هذا العصر ، قال[1] : [الطويل]

تصدَّقْ بوصل إنَّ دمعيَ سَائلُ وَزوِّدْ فؤادِي نظرةً فهو راحلُ
فخدُّك موجود به البرُّ والغِنى وحُسْنُك معدومٌ لديه المُماثِلُ
أيا قمراً من حُسن وَجْنَتِه لنـا وَظِلِّ عِـذاريه الضُّحى والأَصائِلُ
تَنقَّلتَ من طَرْفٍ لِقلْب مع النُّدى وهاتِيـك للبـدْرِ التِّمَّامِ منَـازِلُ
إذا ذكرتْ عيناك للصَّبِّ دَرْسَها من السِّحر قامت بالدَّلال الدَّلائلُ
أعاذِل قد أبصرتَ حِبِّي وحُسنَه فإن لُمتَني فيه فما أنت عاقلُ

وكقوله[2] : [الطويل]

أيا عَبْلَةَ الألحاظِ قلبُكِ عنتَرٌ ومالي على غاراته في الحَشا صَبْرُ
نَعَـمْ أنتِ يا حسناءُ خَنساءُ عصْرِنا وشاهِـدُ قولي أن قَلْبَك لي صَخْرُ

أمّا غزله بالنساء فلا ندرى أعن رغبة صادقة ؟ أم هي المحاكاة للسابقين من الشعراء أيضاً ؟

وأما غزله بالمذكّر فقد تورّط فيه بعض شعراء عصره ، سواء منهم العف والآثم ، وليته عفّ عن هذا النوع من الشعر ، على أن بعض الشعراء تغزّل فيمن يحب من النساء ، وكان خطابه مع ذلك للمذكر ، فلعله من هذا القبيل .

---

(١) عيون التواريخ وفيات ٦٥٤ ٧٣ — ٧٥ ، فوات الوفيات ١/٣٧٤ مع تغيير يسير في الألفاظ ، وإن كان ابن حجة في خزانته ١٣٩ ينسبها إلى ابن الساعاتي ، المنهل الصافي ٢/٣٣٣ مخطوط .

(٢) المنهل الصافي جـ ٢ ٣٣٣ .



ولسنا بسبيل الدّفاع عن الرجل ، وإثبات التقوى والورع له فى هذا التقديم ، وإنما المهمّ هنا أن نزن شعرهَ لنعرف مكانه بين شعراء عصره وغيرهم من الشعراء.

* * *

جـ — ومن الأغراض التى قال فيها ابن أبى الإصبع « المدح » وهو من الأغراض الشعرية القديمة ، وقد فترتْ فيه المعانى الجديدة الجيّدة ، كما نلمح ذلك فى مدحه للملك الأشرف موسى الأيوبى حيث يقول [الطويل] :

أرى الخـــدّ يُبْدى تارةً جنةً خَضْـرا
أُسَطْـرِى به أمْ خَـطّ من صُدْغِـه سَطْـراً [١]

عجبتُ له خدّا تورّدَ خَجْلةً — تريك بأسّ الصدق فيه الدُّجَى ظُهْـرا
رفعتُ له عن دمع عينى ظُلامَةً — أرومُ بها عطْـفا فوقّع لِى يُجْـرَى
بذا العالَمِ السّفلى بات فقد غدا — على العالَم العُلْـوىّ يُبدِى به الفَـخْـرا
غدا مجمعُ البَـحْـرَيْـن شَرْطَ قِرانِنـا — ألم تَرَ موسى فيه قد صادف الخِـضْـرا
قرآن أرانا وجه الشمسَ والبدرا — فأضحى انا بل للأنام به البُـشْـرَى
به اجتمعا لـكنّ ذا لم يقل قِدًا — غداةَ غدٍ :لن تَسْتطيعَ مَعِى صَبْرا

وإن القارىء لهذا الشعر ليحسّ أنه مدح زائف ، لم يَصـدر عن عقيدة ولا إيمان ، وقد بدأه بالغزل ، وبالغ فى المدح ، وأسرف فى المبالغة ليستجدى ، ممّـا يدلّ على أنه كان فقيرا غيرَ طموح ، يحتاج إلى عطف الملوك والسلاطين الذين كان يستجديهم بشعره ، ونلمس هذا المعنى جليّاً من قوله فى الملك الأشرف موسى [٢] [الطويل] :

فَضَحْتَ الحَيَـا والبَحْـرَ جُوداً فقد بَـكَى الـ
حَيَا من حيـــاءٍ منك والْتَطَمَ البَحْـرُ

---

(١) معاهد التنصيص ٤/١٨ والمنهل الصافى ورقة ٣٣٣ .
(٢) مسالك الأبصار ٦/٢٣١ .



عيونُ معانيها صحاحٌ وأعين الـمِلاحِ مراضٌ فى لَواحظها كَسْرُ
هى السحر فاعجب لامرئٍ جاء يبتغى
عواطفَ مِنْ مُوسَى وصنعتُه السِّحْرُ

وقد شاع فى هذا العصر مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وتراه فى شعر ابن أبى الإصبع ممتزجا بحبّ النبى الكريم والحنين إليه ، كما يظهر ذلك من قصيدة لم أعثر إلاّ على مطلعها ، ووصف القرآن فيها ،ومطلعها [1] [الطويل] :

بِسُكْرِ الصِّبَا أعطافُها تتأوّدُ
فألحاظُها سُكْراً علينَا تُعَرْبِدُ

ثم وصف القرآن بعد ذلك عما لا يتّصل بمدح الرسول الذى نحن الآن بصدده، وهذا المطلع لقصيدة بلغت عدّتها ثلاثمائة وخمسة عشر بيتا من ديوان شعر له أفرده بمدائح النبىّ عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، مع قِطَع فى مدح أهل البيت ، وسماه « صحاح المدائح » ومما جاء منها فى وصف القرآن العزيز بعد تعديد معظم آياته قوله :

وآيتُه العُظمى بلاغة مابه أتى من كتاب فضلهُ ليسَ يجْحدُ
تفرد فى عصر البيان بيانُه بأسلوبه إذ نظمُه متفردُ
وفى نظمه بعدَ الغرابة معجز محاسنه لم تنحصر فتُحَدَّدُ
هدى الناس منه للبديع بديعه فصاغوا حُلِيَّ القولِ منه وقلَّدُوا
يعنى يزينُ المرءُ منه كلامَه فيحلو بأسماع الورَى حين يُورَدُ
ويُضحى لما يأتى به أىّ رَوْنق يعظِّمه المُصغِى له ويُمجِّدُ
وجاء سليما نظمه من معايب بلا سقطةٍ فيه لمن يتفقّدُ

ولعل إكثار ابن أبى الأصبع من مدح النبى — صلى الله عليه وسلم — لأسباب أمكننى أن أصل إليها بعد دراسة عصره وحياته ، فمن هذه الأسباب :

---

(١) بديع القرآن باب الاقتدار .



أولا : ما كانت عليه البلاد من سوء الحال والفقر والمرض والفتن والاضطرابات مما حدا به وبغيره من الشعراء أن يتوسّلوا بالنبي ويمدحوه .

ثانيا : كان ابن أبي الإصبع فقيها ومفسراً وشاعرا ، فلعله رأى أنّ من العيب ألا يمدح النبيّ ويتواجد بذكره عليه السلام ، فأكثر من مدحه ، كما أن ذيوع التصوّف في هذا العصر كان من بين العوامل التي دفعته إلى الإكثار من هذا النوع .

ثالثاً : لمّا كان ابن أبي الإصبع من رجال البديع . بل يُعتبر من العمد التي اعتمد عليها أصحابُ البديعيّات من بعده ، وكان مولعا به ، فجمع منه ما جمع وألّف فيه كتابين ، كلّ هذا دفعه إلى الإكثار من مدح النبيّ — صلى الله عليه وسلم — لما يظهر في هذا النوع من المحسّنات البديعية ، ولذلك نجد أصحاب البديعيات من بعده كلّ منهم يَصُوغ بديعيّته في مدح النبي الكريم مضمّنا كلّ بيت نوعا أو أكثر من البديع .

* * *

د — التصوف والزهد : لقد تردّد في شعره تفضيلُ الآخرة ، والتزهيد في الدنيا ، وجعلها قنطرة للآخرة ، وفي هذا يقول (١) [الخفيف] :

من يذمّ الدنيا بظلمٍ فإنّي ... بطريق الإنصاف أثني عليها
وعظتْنا بكل شيء لو أنّا ... حين جادتْ بالوعظ من مصطفيها
نصحتْنا فلم نر النّصحَ نُصحًا ... حين أبدتْهُ لأهلها ملدَيْها
أعلمتْنا أن المآل يقيناً ... للبِلَى حين جدّدت عصرَيْها
كم أرتنا مصارعَ الأهل والأحـ ... ـباب لو نستفيق بين يديها

---

(١) فوات الوفيات ١/٣٧٤ .



ولكم مهجة بزهرتها اغترْ ... رَت فأدمَتْ ندامةً كفَّيْها
أتراها أبقتْ على سبإٍ من ... قبلنا حين بدّلت جنّتيها
يومُ بؤسٍ لها ويوم رخاءٍ ... فتزوّد ماشئتَ من يومَيْها
وتيقّن زوالَ ذاك وهذا ... فاسْلُ عما تَراه من حالتَيْها
دارُ زادٍ لمنْ تزوّد منها ... وغرور لِمَنْ يميلُ إليها
مَهْبط الوَحْى والمصلّى التى كم ... عفّرتْ صورةٌ بها خدّيها
مَتْجَرُ الأولياءِ قد رَبحوا الجنّـةَ فيها وأوردُوا عَيْنَيْها
رغّبتْ ثمّ رَهّبَتْ ليرى كلْ ... لُ لبيب عُقباه من حَالَتَيْها

فالقارىء لهذا الشّعر يخيّل إليه أن صاحبه كان صوفيا ، وواعظا ومرشدا ، يحذّر من الدنيا وغرورها ، والسعى وراءَ لذّاتها ، وهو فى هذه القصيدة لايذمّ الدنيا ، بل يذم من أسرف فى حبها ولَهَا بها ، ويُثنى على من يَفطِن إلى أنها دارُ زوال موصّلة إلى دار قرار ، مع أسلوب جزْل ، وألفاظٍ سهلةً تحمل فى ثناياها كلّ نوع من أنواع الخشوع والتدين .

* * *

ه — ولقد هجا ابن أبى الإصبع ، والهجاء غرض من أغراض الشّعر القديمة والدائمة فى كل العصور ، وهو شاعر له أحاسيسه وعواطفه ، وتحيط به بيئة فيها مايسرّ وما يسوء ، فلا بدّ إذن أن ينفّس عن نفسه ، ويسرّىَ عن عاطفته، بهجاء يوجّهه إلى من لايرضيه حاله ، ولكن هذا الهجاء وذلك النقد كانا بألفاظ بعيدة عن حُوشىّ الكلام وفاحشه ، بل لم تتعدّ وصفَ الشخص بما فيه من عيوب ، وشعرُه خير دليل على صدق ماأقول ، كما أننى أراه يهجو إذا لم يجد من ممدوحه سخاء حيث يقول فى هجاء بخيل (١) : [المتقارب]

(١) مسالك الأبصار ٦/٢٣١



ولمّا رأيتُك عند المَديـ ـح جَهْمَ المُحَيَّا لَنا تَنْظُرُ
تيقّنتُ بُخلك لِي بالنّدَى لأنّ الجَهامةَ لاتُمطِرُ

فها هوذا يهجو من لم يستجب لداعى النّدى ، مستعملا فى ذلك ألفاظا لا تؤدى بل تقرّر الواقع ، كما ترى فى هذين البيتين أثر المنطق فى شعره .

ومن شعره أيضاً قوله فى هجاء قيّمِ حمّام [1] [البسيط]

وقيّم كلّمت جِسْمى أنامِله بغير ألْسنةٍ تكليمَ خرْصانِ
إنْ رامَ مسْك يمِينى كادَ يَخْلَعُها أوْ سَرّح الرأسَ بعد الغَسْلِ أبكانى
فَلَيسَ يُمْسِك بالمَعْروف منه يَداً ولا يُسَرِّح تسريحاً بإحسان

وله كذلك أبيات من أقذع ما رأيت له فى الهجاء قالها فى ذمّ رجل يهودى — وهذا كان موقفه دائما من اليهود ، فقد لاحظتُ فى كتابه كراهيةً منه لهم ، وسُخْطا عليهم — يرميه بالبخل الذى عرُفوا به ، فيقول : ووقع لى من طريف الاستعارة أبياتٌ هجوت بها يهوديّا نبطيا ، وهى : [2] [الطويل]

رأيتُ أبا الخَيْرِ اليهودّى مُمْسِكاً بقَارورة كالوَرْسِ راق حَلِيبُها
وقد رَشّ منها فَوْقَ صفحة وجهه وقال : لقــد أحْيا فؤادِىَ طِيبُها
فقلتُ لَه : ما هــذه ؟ قال : بَوْلَةٌ لأسْوَدَ يَشْفِى الدّاءَ مِنّى قَضِيبُها

---

(١) ويرويان كذلك فى عيون التوارخ برواية أخرى لا تؤدى إلى اختلاف المعنى .

(٢) تحرير التحبير « باب الاستعانة » .



قريبةُ عهـــدٍ بالحَبيبِ ، وإنما
هَـوَى كلُّ نَفْسٍ حيثُ حلَّ حبيبُـها (١)

* * *

وخلاصة القول فى شعره — على أساس ما وقع لنا منه — أنه من شعراء البديع المتقدّمين فى عصره، وكلّ ما نأخذه عليه أن غالب شعره الذى كان يتمثل به إنما كان يصدُر عن لسانه هو وكان يعتمد فيه على الصنعة البديعية ، فلم يبلغ فيه فُحولةَ السابقين .

وخيرُ دليل على ذلك قصيدته التى يمدح بها الملكَ الأشرفَ موسى الأيّوبىّ والتى مَـطلَـعُـها : (الطويل) .

فضحتَ الـحيَـا والبَـحْرَ جُـودا فقد بـكَى الـ
حَيَـا من حياءٍ منكَ والْـتَطَـم البحرُ
عيونُ مَـعانيهـا صحـــاحٌ وأعينُ الـ
مِـلاحِ مِرَاضٌ فى لوَاحظِـها كَـسْـرُ
هىَ السِّـحْـر فاعجب لامرىءٍ جاء يَـبْـتغِـى
عواطفَ من موسى وصنعَتُـه السحرُ

ثم يعلّـق على هذه القصيدة بقوله :

« وقع لى فى البيت الأول من هذه الأبيات ستة عشر ضربا من البديع فيه، الإستعارة فى ثلاثة مواضع فى « افتضاح الحيا ، وبكائه ، وحيائه ، والمبالغة إذ جعلت الممدوح يفضح الحيا والبحرَ بجوده ، والتفسير فى قوله «جودا» وقوله: من حياءٍ منك ، والإغراق لما فى جملة القافية من زيادة، والترشيح بذكر الاستعارة الأولى للاستعارة الثانية ، والتجنيس بين الحيا والحيـــا ، والتورية فى قوله « والتطم البحر » ، والترشيح للتورية بذكر البـكاء ، وصحة التقسيم فى حصر

(١) هذا البيت لابراهيم بن العباس الصولى ، الصناعتين : ٩ .



القسمين اللذَين يُضرَب بهما المَثَل فى الجُود ولا ثالث لهما ، والتصدير فى كون البحر مذكوراً فى صدر البيت وهو قافيته ، والتعليل فى كون العلة فى بكاء الحيا والتطام البحر وفضحهما بجوده ، والتسهيم فى كون صدر البيت يدل على عجزه ، وحسنُ النَّسق فى كون جُمَله عُطِف بعضها على بعض بأصح ترتيب ، والإرداف لأنى عبّرت عن عظم الجود ببكاء الحياء من الحيـــاء والتطام البحر .

فهذا ما فى تفاصيل البيت ، وأما ما فى جملته فبالمساواة لكون لفظه جمل قالباً لمعناه ، وائتلاف لفظه مع معناه فى كون ألفاظ البيت متلائمة مختارة ، لا تصلح موضع كل لفظه غيرها لخلوّه من التعقيد ، والتقديم والتأخير وسوء الجوار والإبداع فكل لفظة من مفرداته تتضمن نوعا أو نوعين من البديع .

وهكذا شأنه ، وهذه حاله فى شعره .



ثالثاً — آثاره العلمية

أولا : تحرير التحبير الذى ألفه فى بديع الشعر والنثر ، وهو كتاب بين مؤلفه لنا مادفعه إلى تأليفه ، فقال فى مقدمته : « وبعد : فإنى رأيت ألقاب محاسن الكلام التى نعتت بالبديع قد انتهت إلى عدد منه فروع وأصول ، فأصولها ما أشار إليها ابن المعتز فى بديعه ، وقدامة فى نقده ، لأنهما أول من عنى بتأليف ذلك إلى أن يقول ولما أمرنى من لا محيد لى عن أمره ولا محيص عن رسمه سيد الفضلاء ... أبو على الحسن بن الحسن بن القاضى الأجل جلال الدين المكرم أبو الحسن موسى بن الحسن ابن سناء الملك يجمع ما فى كتب الناس الخ .

وقد قسم كتابه المشار إليه إلى ثلاثة أقسام :

وفى القسم الأوّل منه تكلم عن الأصول وهى الأبواب التى ذكرها كلٌّ من ابن المعتز وقدامة ، وذكر فى هذا القسم من أنواع البديع مايأتى :

(١) الاستعارة (٢) الجناس (٣) الطباق (٤) ردّ الاعجاز على الصدور (٥) المذهب الكلامىّ (٦) الالتفات (٧) التمام (٨) الاستطراد (٩) تأكيد المدح بما يشبه الذم (١٠) تجاهل العارف (١١) الهزل الذى يراد به الجدّ (١٢) حسن التضمين (١٣) الكناية (١٤) الإفراط فى الصفة (١٥) التشبيه (١٦) إعتابُ المرء نفسه (١٧) حسن الابتداءات (١٨) صحة الأقسام (١٩) صحة المقابلات (٢٠) صحة التفسير (٢١) ائتلاف اللفظ مع المعنى (٢٢) المساواة (٢٣) الإشارة (٢٤) الإرداف والتتبيع (٢٥) التمثيل (٢٦) ائتلاف اللفظ مع الوزن (٢٧) ائتلاف المعنى مع الوزن (٢٨) ائتلاف القافية مع مايدل عليه سائر البيت (٢٩) التوضيح (٣٠) الإيغال .

ثم تكلم فى القسم الثانى من أقسام الكتاب عن الأبواب التى عدّها فروعاً، وهى : ٣١ الاحتراس (٣٢) المواربة (٣٣) الترديد (٣٤) التعطف (٣٥) التفويف (٣٦) التسهيم (٣٧) التورية (٣٨) الترشيح (٣٩) الاستخدام (٤٠) التغاير (٤١) الطاعة والعصيان (٤٢) التسميط (٤٣) المماثلة (٤٤) التجزئة (٤٥) التسجيع

(٤٦) الترصيع (٤٧) التصريع (٤٨) التشطير (٤٩) التمليل (٥٠) التطريز (٥١) التوشيح (٥٢) العكس والتبديل (٥٣) الإغراق (٥٤) الغلوّ (٥٥) القسم (٥٦) الاستدراك والرجوع (٥٧) الاستثناء (٥٨) الاشتراك (٥٩) جمع المؤتلفة والمختلفة (٦٠) التوهيم (٦١) الاطراد (٦٢) التكميل (٦٣) المناسبة (٦٤) التفريع (٦٥) التكرار (٦٦) نفي الشيء بإيجابه (٦٧) الإبداع (٦٨) الاستعانة (٦٩) التذييل (٧٠) المشاكلة (٧١) المواردة (٧٢) التهذيب والتأديب (٧٣) حسن النسق (٧٤) الانسجام (٧٥) براعة التخلص (٧٦) الحل (٧٧) العقد (٧٨) التعليق (٧٩) الإدماج (٨٠) الإتساع (٨١) المجاز (٨٢) الإيجاز (٨٣) سلامة الاختراع من الاتباع (٨٤) حسن الاتباع (٨٥) حسن البيان (٨٦) التوليد (٨٧) التنكيت (٨٨) الاتفاق (٨٩) النوادر .

وقد وجه نقدا إلى بعض مُعاصريه وهو الأجدابي في تسميته بعض أنواع البديع ونسبتها إلى نفسه ، وادعائه أنه غير مسبوق إليها ، وهي :

(٩٠) الالتزام .

وقد ظن ابن الإصبع أن هذا الباب من صنيع الأجدابي ، والحقيقة غير ذلك إذ أن الالتزام هو بعينه «لزوم مالا يلزم» الذي سماه ابن المعتز «إعنات المرء نفسه» ولكنني ألتمس العذر للعالمين الفاضلين ، فالخلط وقع من جراء التحريف في النسخ التي اطلعا عليها .

(٩١) التسبيغ .

لم يَرُق ابن أبي الإصبع هذا الاسم ، ورأى أنه لا ينطبق على مسمّاه ، فسماه تشابه الأطراف .

(٩٢) التشريع .

وكان صنيعه في هذا النوع كسابقة وسماه: التوأم، ثم قال بعد ذلك: وهذا آخر ما جمعته من كتب الناس بعد التنقيح والتحرير ، وتغيير ما حسن فيه التغيير (١)

(١) تحرير التحبير باب التوأم.



ثم بين ماحفزه إلى اختراع مااخترع من الأنواع ، وتجديد ماجدّد في البديع فقال في المقدّمة : ولما خطرلي أن أتحف الجنابَ العالي « كمال الدين(١) أبا القاسم عمر بن هبة الله العُقَيلي البصري الحلبي المولد والمنشأ ، رحم الله سلفه كما رَحِم به من عَرَفه ، وأمتعه بفضائله كما أمتع الفضلاء بفواضله ، وعلمتُ أنه أهل لأن تُسكدّ له الخواطر ، وتجم(٢) له القرائح ... عنّ لي استنباط أبواب تزيد بها الفوائد ، ويكثر بها الامتاع ، نَسْجا على منوالِ مَن بَعُدَ مني ، واتباعا لسنه من سبقني ، ففتح علي في ذلك ثلاثين بابا سليمةً من التداخل والتوارد ، ولم أسبق في غلبة ظني ، اللهم إلا أن يوجدفي زوايا الكتب التي لم أقف عليها بما اخترعته فأكون أنا والسابق إليه متواردين عليه ، وما أظن ذلك ، والله أعلم(٣) .

ثم أراد أن يبين السر في قصر مخترعه على ثلاثين بابا فقط فقال(٤) :

« لما انتهى استخراجي إلى هذا العدد أمسكت عن الفكر ، ليكون ماأتيت به وفق عدد الاصول .

ثم قال(٥) : وهذا أوان سياقة أبوابي التي استنبطتها ، وأنواعي التي اخترعتها وهي :

(١) التخيير (٢) التدبيج (٣) التمزيج (٤) الاستقصاء (٥) البسط (٦) الهجاء في معرض المدح (٧) العنوان (٨) الإيضاح (٩) التشكيك (١٠) الحيدة والانتقال (١١) الشماتة (١٢) التهكم (١٣) التنديز (١٤) الاستجال بعد المماطلة (١٥) الفرائد (١٦) الالغاز والتعمية (١٧) التصرف (١٨) النزاهة (١٩) التسليم (٢٠) الافتنان (٢١) المراجعة (٢٢) السلب والإيجاب (٢٣) الابهام (٢٤) القول بالموجب

---

(١) هو كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد ابن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة ابن ربيعة بن خويلد بن عويف بن عامر بن عقيل الحلبي الفقيه الحنفي الكاتب المعروف بابن العديم ، ولد بحلب في العشر الأول من ذى الحجة من سنة ٥٨٦ هـ وسمع الحديث من أبيه وعمه أبي غانم محمد ، وأفتى وصنف ، وكان إماماً عالماً فاضلا مفتناً في علوم كثيرة ، وهو أحد الرؤساء المشهورين ، والعلماء المذكورين ، كان محدثاً فاضلا حافظاً مؤرخاً وكان من أعيان مصر ، ومن الذين يرجع إليهم في الشورات السياسية والملك ، مات في القاهرة سنة ٦٦٠ هـ ودفن بها انظر النجوم الزاهرة ٥/٥٥ و ٢٠٩/٨ ومعجم الأدباء وفوات الوفيات ٢/١٠١ .

(٢) تجم له القرائح : تراح (٣) مقدمة تحرير التحبير ٩

(٤) المصدر نفسه ٩ وما بعدها . (٥) انظر باب التوأم من أبواب بديع القرآن .

(٢٥) حصر الجزئى وإلحاقه بالكلى (٢٦) المعارضة (٢٧) المناقضة (٢٨) الانفصال (٢٩) الإبداع (٣٠) حسن الخاتمة.

ثم يقول بعد ذلك فى المقدمة (١) : « وألحقت ذلك بما تقدم من الأبواب فصارت عدة أبواب الكتاب مائة باب وعشرين بابا » فى حين أنها مائة باب واثنان وعشرون بابا فلعله لم يعد بأبى الأجدابى اللذين غير اسميهما وأبقى مسماهما ثم قسم هذه الأبواب كلها قسمين فقال : « وجملة هذه الأبواب على ضربين : ضرب يختص بالشعر، وضرب يختص بالشعر والنثر » وإن المتأمل فى هذا الكتاب ليحس إحساسا ظاهرا واضحا أن المؤلف قد بالغ فى انتقاء شواهده، كما بالغ أيضاً فى حسن اختيارها. وهذا يتراءى لنا عندما نتناول هذا الكتاب بالدرس فى بحث آخر.

وإن الناظر فى هذا المصنف ليراه فريداً فى بابه، وقد تتبعت ما استطعت أن أتتبعه من الكتب التى تعرضت لهذا الفن فما رأيت له نظيرا فيما سبقه، ولا فيما لحقه، إلا أن يكون مؤلفا بعيدا عن متناول أيدينا.

ثانياً : ومن آثاره أيضا كتاب « بديع القرآن » الذى نحن بصدد تحقيقه وهو كتاب نسيج وحده فيما جاء فى آيات الذكر الحكيم من الأنواع البديعية التى جمعها عن السابقين، والتى اخترعها، فانه أتى فيه بالعجب العجاب، ليدلل بذلك على أن الأنواع البلاغية والمحسنات البديعية غير مقصورة على شعر الشعراء، ونثر الكتاب، بل هى موجودة فى القرآن :

(١) ومصداق ذلك ما قاله المؤلف فى مقدمة كتاب « بديع القرآن » فبعد أن تكلم عن « تحرير التحبير وأنه الأصل الأصيل الذى حاول اختصاره فلم يجد إلى ذلك من سبيل، فأفرد منه ما يختص بالقرآن من الأنواع البديعية، وذلك حيث يقول : « وسئلت اختصاره فلم أجد إلى ذلك من سبيل، لارتباط بعضه ببعض، ودعاء الحاجة إلى كل ما فيه، وتعلق معانيه بمبانيه، ورأيت أنى إذا أفردت منه الأبواب المختصة بالقرآن العزيز كان ذلك اختصاراً نافعاً تتميز فيه بلاغات القرآن وبديعه ويسهل استخراج إعجازه، وتقريب طرق إطنابه وإيجازه ؛ وأن كون

(١) مقدمة تحرير التحبير.



قد أتيت من ذلك بما لم أسبق إليه ، فأفردت الأبواب المختصة بالكتاب العزيز » .

استطاع المؤلف فى كتابه هذا أن يثبت أن القرآن قد حوى صفات الأدب الخالدة ، ومميزاته النفسية ، وهذا ماجعل الناس يدركون إعجازه ، ويتذوّقون جماله فى تعاليمه الرقيقة ، وقيمه الأخلاقيّة السامية التى تقصد إلى تنظيم الحياة على رغم بساطتها ، وفى هذه البساطة سر من أسرار الجمال الفنى الذى يظهر فى الخيال الخِصب الذى يصور الندم ، وعذاب الضمير ، وآلام النفس[1] وأفراحها ، وتعاطف البشر ، ويصور الجنة والنار وقد أدّى بذلك ما أراد إبلاغه للناس بأجمل موسيقى ، وخير أداء ، وبين أن المعنى ينساب إلى النفس مع انسياب الألفاظ إلى السمع ، فكأن الكلام يقع فى القلب لا فى الأذن[2] ، وكأنه يخاطب بذلك الروح فتدرك منه معرفة منشئه بالنفس البشرية ، وحسن التأنّى فى مخاطبتها ، كما أن المؤلف لم ينس أن يكشف عن تعاليم القرآن الدينية ، ومثله العليا التى تدل على التقدير الخلقى والأدبى[3] . هذا كله أراد المؤلف أن يظهره فى كتابه .

(ب) ولما كان (بديع القرآن) مفرداً من « تحرير التحبير » لزم الإشارة إلى ما بينهما من توافق وتخالف ، ففى « بديع القرآن » تكلّم عن مائة باب وتسعة أبواب ، وترك من أبواب « التحرير » اثنين وعشرين نوعا لم يذكرها ، وهى :

(١) الهزل الذى يراد به الجد (٢) ائتلاف اللفظ مع الوزن (٣) ائتلاف المعنى مع الوزن (٤) التجزئة (٥) الترصيع (٦) التصريع (٧) التشطير (٨) التطريز (٩) التوشيح (١٠) الإغراق (١١) الغلوّ (١٢) الاشتراك

---

(١) انظر باب عتاب المرء نفسه .

(٢) انظر ائتلاف اللفظ مع المعنى ، والإبداع .

(٣) انظر باب « النزاهة » وأراد به نزاهة ألفاظ الهجاء عن الفحش حتى يكون الهجاء كما قال أبو عمرو بن العلاء ، تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح عليها .



(١٣) التفريع (١٤) الإبداع (١٥) الاستقامة (١٦) المشاكلة (١٧) المواردة (١٨) الحل (١٩) العقد (٢٠) الاتفاق (١٢) الهجاء فى معرض المدح (٢٢) الإلغاز والتعمية .

وذلك لأنه لم يجد لها أمثلةً فى القرآن الكريم · وإن وجد بعض المؤلفين لبعضها فيما بعد(١) .

كما ذكر المؤلف أنواعا بديعيّة فى كتاب « بديع القرآن » ولم يذكرها فى « تحرير التحبير » وهى :

(١) التلفيف (٢) التفصيل (٣) الإلجاء (٤) التنظير (٥) الزيادة التى تفيد اللفظ فصاحة وحسنا (٦) التفريق والجمع (٧) الرمز والإيماء .

(ج) ولعل السرّ فى ذلك هو تأليف « تحرير التحبير » أوّلا ، ثم إفراد « بديع القرآن » منه ، فظهرتْ له هذه الأنواع بعد الدراسة والبحث عن أنواع البديع ، فعثر على أمثلة لهذه الأنواع فذكرها ، وممّا يقوّى ما أقول إن هذه الأنواع لا توجد فى النسختين اللتين رمزت لهما بحرفَى « ا » ، « ب » وهذه الأنواع ليست مستحيلة الوقوع فى كلام البَشَر ، بل من الممكن وجودها فى كلامهم ، كما أن الدلائل الواضحة على أن هذه الأنواع مَزيدةٌ فى البديع بعد تأليف « التحرير » الاضطراب الذى وقع فى باب « السلب والإيجاب » فنرى المؤلّف قد تكلم عن هذا النوع تحت اسم « نفى الشىء بإيجابه » وتكلم تحت اسم « السلب والإيجاب » فى بديع القرآن عن إثبات الشىء للشىء بنفيه عن ذلك الشىء ، تكلم عن السلب والإيجاب فيما أخذه عن السابقين ، وفيما عرّفه فى « تحرير التحبير » بنفى الشىء بإيجابه .

وليت الأمر وقف عند ذلك ، بل إنه سمّى نوعين فى « تحرير التحبير » باسمين، ثم غيرّ هذين الاسمين فى « بديع القرآن» وهما « ائتلاف القافية مع مايدلّ

---

(٢) انظر خزانة الأدب لابن حجةفى أبواب الترصيع ، والإغراق ، والمشاكلة .



عليه سائر البيت ، « والتصرف » وسماها فى « بديع القرآن » ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام ، « والاقتدار » .

(د) وقسم المؤلف « بديع القرآن » إلى الأقسام الثلاثة أيضاً ، وأخذ على نفسه عهداً ألا يستشهد فيه إلا بالآيات القرآنية ، ولكننا نراه قد خالف عهده ونقض شرطه فى باب القسم «وجم المؤتلفة والمختلفة» وباب « حسن الاتباع» وسرعان ما يلتمس لنفسه العذر ، ويبين السبب الذى من أجله خالف شرطه ، ونقض عهده وهو التقديم للآية بشىء من الشعر ، ليوضح ما هو بصدده من الأنواع ، حتى يوقف القارىء على حقائق لا يكاد لا يحسها لو لم يقدم لها بشىء من الشعر ، كما أنه كان يضطر أحيانا إلى ذكر شىء من الشعر ليقارن بينه وبين آية من آيات القرآن ليكشف عن بلاغته وحسن بديعه .

(هـ) وسوف أترك الحديث عن الأصول والفروع من أقسام الكتاب ، لأنهما لا يختلفان كثيراً فى « بديع القرآن » عنهما فى « تحرير التحبير » .

أما القسم الثالث وهو الجديد الذى اخترعه ، فقد بينت فى تحقيقى لبديع القرآن مدى صحة ادعائه وبيان ما سلم له من الأنواع وما لم يسلم ، مرجعا كل نوع إلى صاحبه فى الهامش .

ثالثاً : « كتاب الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح[1] » .

لم يسعدنى الحظ بالعثور على هذا الكتاب ، ولعل موضوعه الكلام على معانى أوائل السور ، والمراد منها ما ذكره المؤلف فى كتابه « بديع القرآن » ، كما ذكر السيوطى[2] أنه من الكتب التى اطلع عليها وتأثر بها واستمد منها فى كتابه الإتقان .

---

(١) ذكره صاحب معاهد التنصيص فى ترجمته لابن أبى الإصبع تحت اسم « الجواهر السوانح فى سرائر القرائح : وكذلك تكلم عنه مؤلف كتاب الحركة الفكرية فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية تحت هذا الاسم ؛ والصواب ما ذكرناه عن المؤلف نفسه وعن الإتقان للسيوطى .

(٢) الإتقان ١/٩ .



رابعاً : كتاب الأمثال [١]

ابتدأ فيه بذكر ما وقع فى القرآن الكريم من الأمثال ، وألحق بها أمثال دواوين الإسلام ، وختم الجميع بذكر أمثال العامة ، وذكر فى كتابه « تحرير التحبير [٢] » أنه استخرج أمثال أبى تمام من شعره فوجدها تسعين وثلاثمائة بيت بعد استخراج أمثال المتنبي التى وجدها مائة نصيف وثلاثة وتسعين نصفا ، وأربعمائة بيت ، ولكنه أخرج من أمثال أبى الطيب ما وجده من أمثال أبى تمام وهو أيضاً من الكتب المفقودة .

خامساً : صحاح المدائح [٣] »

وهو عبارة عن ديوان شعر مدح به النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته كما مدح فيه الخلفاء الراشدين الأربعة ، ووصف فى بعض قصائده القرآن وبلاغته وحسن تركيبه وبديع أسلوبه ، وهو مفقود لم أعثر عليه .

سادساً : « الكافلة فى تأويل تلك عشرة كاملة [٤]

وهذا كتاب يخيل إلىّ أنه يتصل بمادة المؤلف ، إذ أنه تكلم كثيرا فى بديع القرآن عن تفسير بعض الآيات القرآنية وتأويلها ، وتخريجها ، وعارض بعض المفسرين فى بعضها ، كما تكلم عن الأفــلاك ، وعن خلق السموات السبع وما تعرف العرب من نجومها والهداية بها ، وأنوائها ، وإنزال الغيث من جهتها ومقدمات ذلك من الرعد والبرق وتصريف الرياح ، وأن العرب لا تعرف من الأفلاك إلا الكوكبة منها لرقبتها لها عند سيرها فى الليالى ومسراها فيهـا ، ولا شك أن هذا الكتاب شديد الصلة بهذا الموضوع وتلك الدراسة ، وهو مفقود لم أعثر عليه أيضاً .

---

(١) انظر أنوار الربيع فى علم البديع ١٦٨ .
(٢) تحرير التحبير ٨٠ .
(٣) انظر بديع القرآن باب البسط .
(٤) انظر باب البسط من بديع القرآن .



سابعا : « الشافية فى علم القافيــة »

وهذا الكتاب يُعرف موضوعه من اسمه ، فهو من غير شك يبحث فى علمى العروض والقافية ، ولم أعثر عليه كذلك .

ثامنا : « الميزان فى الترجيــح بين كلام قدامة وخصومه[1] »

وهذا الكتاب له صلة وثيقة بالنقد ومعرفة مايلزم فى تأليف الشعر والنثر وتخير المكان والزمان فى ذلك ولم أحظ برؤيته .

تاسعا : « وصيّته إلى الكـتّاب والشعراء[2] »

وهو عبارة عن تحرير وتحبير لوصية أبى تمام للبحترى ، لأنه رأى أن وصية أبى تمام محتاجة إلى تحبير وتحرير فى معانيها ، وإيضاح لما أُشكل منها ، وزيادة تفتقر إليها ، فحرر فيها ما يجب تحريره ، وأضاف إليها ما وجده لازما لها ، فصارت وصيةً قائمة بذاتها ، أستعين الله فى نشرها على حدة .

* * *

وإلى هنا أقف عند هذا الحد من التقديم ، ولا أدخل إلى هذه الدراسة التاريخية الفنية المتخصصة لكتاب « بديع القرآن » ، فإن ذلك تعوزه رسالة خاصّة ، أرجو أن أوفّق إلى كتابتها إن شاء الله تعالى ، وقد جعلتُ هذه الرسالةَ للماجستير تمهيدا لتلك ، واقتصرتُ هنا على تحقيق النصّ ، وتقديمه فى هذه الفصول .

وها هو ذا نص الرسالة ، وعند الله أحتسب مابذلتُ فى سبيل تحقيقها من أوقات وجهود .

---

(١) انظر باب التهذيب والتأديب من تحرير التحبير .

(٢) المصدر نفسه .





الفهرس

الصفحـــة

